رواية

لأني أسود



سعداء الدعاس

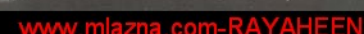
" تقتنصوننا بنظراتكم .. تشكلوننا كما تريدون ..

تستلذون فرز ملامحنا ... تسلخونها عن محيطها المتجانس. تعزلونها عن دفئها . لتبرزوا ضخامتها ..
وتمنحوننا مرآة لا تعرف جمال تقاطيعنا .. لا تدرك تاريخنا .
وتعجز عن كشف أرواحنا المثقلة بالحب ..

وفي لحظة عريتنا في أعينكم ... نمسك مرآتكم المضببة بأيد مرتعشة .. ننظر إلى تفاصيلنا بعين مدثرة بالدمع
..فنمقتها بعد أن كنا نعشقها ... ونبدأ طقوس الولادة على أيديكم المشبعة بالذنب : نمارس شعورنا التي أحببناها منكوشة ...كي لا نؤذي مقلكم التي لا حياة فيها .

نقشر جلودنا السوداء . اللامعة . المصقولة .. لنجانس ألوانكم الشفافة الباردة.
نرتدي وجوها لا نعرفها ..لا نستسيغها ...نمقتها . لنكون مرئيين في محيط لا مرئي ..

نتحول بفضلكم إلى أشباح ....بعد أن كنا بشراً ! "



لأني أسود

رواية

سعداء الدعاس

الطبعة الأولى ٢٠١٠

الغلاف : هيثم محمد

رقم الإيداع ٢٠١٠/٢٥٩

الترقيم الدولي : ISBN:978-99966-40-20-9

* سعداء الدعاس : ماجستير نقد وأدب مسرحي ، مدرس مساعد بالمعهد العالي للفنون المسرحية ، صدر لها "عتق" مجموعة قصصية، فازت بجائزة الدولة التشجيعية للرواية ٢٠١٠ ، وجوائز "طه حسين" ، " إحسان عبد القدوس" ، "هيئة الشباب والرياضة " للقصة القصيرة .

علاء الجابر..

حبيبي ..

يسكنني تجانس روحينا، اختلاف انتماءاتنا

ولحظـــــة قاتلتنـــــا لنحياهـــــا

إلى أن بتنا ....نتنفسنـــا

الفارس ، سماء ..

صغاري ..

عشقٌ قديـــــــــــــــــــم ....

مذ عرفتُ أن كل أنثى مشروع أم

سعداؤكم

٢٦-٨-٢٠٠٨

إعتذار ..

لسوداء لم تخضع لمعيارنا .. فعاشت جميلة ..
وأخرى طوقها معيارنا .. فماتت قبل أن تعيش ..

أعرف أن قبحنا لا يُدارى...
أنا فقط أعتذر !

مثل كل الأطفال ولدتُ أصرخ .. هم يصرخون المستقبل المجهول ، وأنا أصرخ المستقبل المعلوم ، الذي صفعني لحظة لفظني رحم أمي ، ورمى بي في حضن يد بيضاء ترتدي الأبيض في فضاء مشحون بالبياض .

بكل قوتي تخلصت من رحم ظل يقيدني شهورًا طويلة . ومن بين تشققات جسد أسود .. استقيتُ أولى بوادر الحياة.. حاملا صبغة جينية داكنة..ترسم هالتي ، تلتصق بجلدي .. تتسرب إلى خلاياي .. وتغزل من السواد نسيجًا تاريخيًا معتقًا ، بامتداد عمر (الشمس) التي ألهمتني السواد ، حين (بخّرت) كياني المائي يومًا ما ... (كثفتني) في السماء البعيدة ، وحولتني من مخلوق لا لون ، لا طعم ، ولا رائحة لـه ... إلى كائن محسوس اللون والطعم والرائحة ....تراه الدنيا بأكملها .

لم يختر جسدي الصغير لونه ..

جئت كجميع أبناء جلدتي ، بعد أن قررت جيناتي ...

أني أســــــود .

لحظتها .. أصدرتْ حنجرتي صراخا شق سكون المكان ... خشية مستقبل ينضح بالاختلاف .. محمل بإرث عنصري لا فكاك منه ...

إرثٌ اعتاد أن (يلبس) الأسود ، ويعتز به كملك للألوان .. كما اعتاد أن (يَسلب) الأرواح السوداء مُلكها .

يستعبدها .. ينبذها .. يقتلها إن دعت الحاجة.

في تلك الغرفة المفعمة بالبياض ، لمع جسدي الصغير على تلك الأكف البيضاء . كنت أصرخ .. أرتجف .. وأعلن للعالم .... سوادي .

* * *

جمال .. اسمي

الأسود .. لوني

هل أتمنى ألا يكون لوني ؟!

سؤال شائك ... يشل أوصالي .. ينهش ما تبقى من مناماتي ، ويزج بي في هوة ملأى بالأسئلة القاتلة :

هل أتشبث بلون يسكن جيناتي ، أم أتحول إلى مسخ لا لون له؟!

هل أستخدم ألفاظا تصف (سوادي)؟أم أستبدلها بـ (سمار) لا علاقة لي به ؟!

هل أفخر بحضارة تبيت بين مساماتي؟ أم أتنصل من بؤس يتوسد أبناء جلدتي؟

هل يحق لي أن أكون أنا ؟! أم لابد أن أستعير تقاطيع أخرى... لا تشبهني !

* * *

أتساءل دائما لماذا أنا أسود ؟

لماذا أنا بالذات..وليس أنت ؟

أعرف إجاباتك المصفوفة..أحفظها .. أمقتُ تكرارها...ويقززني لونك الأبيض الشاحب وأنت ترددها ..بحجج ممجوجة يزفها صوت محفوف بالإيمان .. يدثر فكرًا يؤكد أنك أول من سيوصد بابه في وجهي ، إن تجرأتُ يوما على التصريح برغبتي في الاقتران بابنتك الشاحبة..!

لا تكرر إجاباتك الهلامية .. لا تخلع عن قضيتي جذورها ، لا تنزع عنها معاناتها ... لا تسلخ عنها عمقها ، فأنت تجهل معنى أن تكون أسود...

معنى أن يكون لونك مصدرًا لإهانتك !

معنى أن تحمل هوية لونية منذ ميلادك حتى الممات .

هوية تتقن تعريتك ..

تحدد انتماءك قبل أن تصرح به ...

تُسبغ عليك الإجرام قبل أن تقترفه ..

توصمك بالفقر قبل أن تُبتلى به ..

هذه هويتي ...هل تقبل بها أنت ..؟

هل تقبل أن تُكبّل حياتك في أحياء لا يسكنها غيرك ؟!

هل تقبل أن تُقنن مشاعرك بنساء لا يخرجن عن حدود هويتك ؟!

هل تقبل أن تعيش يومك رهن حماقات ونكات تتلذذ بصفعك؟!

هل تقبل أن تـُعرف بـ " العَـبْد " ؟!

جمال

السالمية - الكويت

١٨ – ٩ - ٢٠٠٩

نطفة السواد...

تشكل النطفة الأولى كارثة أمهاتنا ... كلهن يتوسلن تلك الانتفاخات الرحمية أن "كوني أقل سوادًا أرجوك" ...لم يرغبن بأطفال بيض قط .. فلا أمقت من طفل أبيض شاحب يتجول كـ (كاسبر) في حي أسود ، ولا أسوأ من سمعة امرأة سوداء تعاشر رجلا أبيض.

كلهن يسعين لنطفة أقل سوادًا فقط ... لإدراكهن أن السواد الداكن يشكل نعمة الانتماء لأم لم تبرح خارج حدود الحي .. لكنه يشكل نقمة الاختلاف لأم جالت بعينيها أحياء أخرى ، ودواخل بشر تخشى لقاءهم ، ولا يسعون للقائها..

بشرٌ يتقنون تعريتها بنظراتهم القاسية .. ويمنحونها صك العبودية ، والخدمة ، لحظة اقتحامها محيطهم ..

أمّ كهذه .. لابد أن تتمنى السُّمرة لوليدها ، السمرة فقط .. عل لونه الفاتح يؤهله لامتلاك كوة صغيرة ، يطل منها على عالم لا يتجول فيه عادة غير أشباح رؤوسها متوجة باللون الأصفر .

" كوني أقل سوادًا أرجوك "

بهذه الأمنية تهمس الأمهات لنطفة السواد الأولى .. وتزداد جرعة الهمس حين تعرف الأم جنس جنينها.. فالفتاة تحتاج دعوات مضاعفة بلا شك .

لا أسعد حظـًا من أنثى تخترق رحم أم سوداء ببشرة أقل سوادًا .

أن تكون الفتاة أقل سوادًا..يعني أنها ستحظى بشقاء أقل...وفرص أكثر.

أعلم أن الشقاء قريننا .... لكن الفتاة الأقل سوادًا ، أوفر حظا من الأخريات ، فلن تقع فريسة كريمات التبييض .. ولن تقضي يومها تتعبد في محراب مصفف الشعر ، كما تردد الجدات :

" كلما ازداد سوادك كلما ازدادت تموجات شعرك " .

الفتاة الأقل سوادًا لن يؤسّر جسدها بارتداء ألوان بعينها ، لن تقترن ملامحها بأصباغ فاقعة ، لإبراز شفاه لا تتأطر حدودها في وجه داكن .

الفتاة الأقل سوادًا غالبا ما تغوي الشباب السود الذين يجدون فيها الاختلاف، والشباب البيض الذين يجدون فيها الاختلاف أيضًا.

" كوني أقل سوادًا أرجوك "

يظل الهمس طوال مرحلة التكوين الأولى ..

"كوني أقل سوادًا...كوني أقل سوادًا"

لا يتقلص الهمس إلا حين تتكون الأجنة الذكورية .. لأن الصبي الأسود ، عادة ما يحالفه الحظ في علاقته باللون الآخر ... ما أن ينضج حتى يصبح هدفا لنساء شرهات تشربن مفاهيمهن الجنسية من الأفلام التي لا تنفك تصور الأسود الأكثر شراسة ومتعة..!

لكن ، أن يعانق الصبي أولى لحظاته الدنيوية ببشرة أقل سوادًا ، فهذا حظ لا ينكره أحد...حظ يجنبه طفولة يسهل فيها الاندماج مع آخرين لا تمنعهم أمهاتهم عن اللعب مع طفل داكن ، يوصم بالشغب ، ويُقرن بالجريمة، حتى وإن ثبت العكس .

حين يكون الولد أقل سوادًا .. يعني أنه مشروع ابتسامة هادئة.. بأنف أقل اتساعًا .. وشعر قابل للتشكيل تتمناه أجيال تفتقد متعة العبث بخصلات شعر الحبيب الأسود . فلا ألذ من العبث بخصلات ناعمة ، منسابة ، تنمو دون تعرج يُفضي إلى الاشتباك .

* * *

" كوني أقل سوادًا أرجوك "

تستمر الأمنية بشحن الأفواه لحظات الاختلاء بالأجنة .. خاصة حين ترخي الأم جسدها في حوض الاستحمام ، تراقب قدميها وهي تغطس في الماء الساخن ، ترجف أوصالها خشية الانزلاق ، وتظل تنظر ليديها المتشبثة بحواف الحوض ، كمن يتشبث بأطراف حفرة مجهولة اضطر للولوج في جوفها .

تسترخي الأم بعد أن تثبت جسدها المنهك ، تحمي ظهرها بمخدة اعتادت استخدامها للغرض ذاته .. رأسها المتثاقل يتمايل على أنغام موسيقى صادرة من مكان ما في الحي الصاخب .. تسند

قدميها المعقوفتين على حافة الحوض ، لتحريك الدماء في الأقدام كما اعتادت منذ أن تكورت بطنها .

تدندن مع أنغام (الجاز) ويداها المغلفتان برغوة الصابون تداعبان طفلا منتظرًا يسكن الأحشاء ... تتمنى أن يستمد من الرغوة البيضاء بعضا من لونها ، إيمانا بقدرة اللون (الفاتح) على الزج بطفلها في علاقات عديدة ، جديدة ، مع ألوان أخرى تسعى للاختلاف المعقول ، بعيدًا عن سواد يُغرقها في ظلامه .

* * *

لم تكن أمي (جوان مكلاين) لتشذ عن باقي الأمهات ..

منذ لحظة الرغبة الأولى ... تمنت أن أكون أقل سوادًا . سعت للحصول على هجين يمنحها حق الانتقال للضفة الأخرى.. وبعد أن عجزت عن تحقيق أسباب منطقية ، جينيّة ، تنتج ذلك الهجين...... اكتفت بالدعاء .

لم تمتلك (جوان) بقعة بيضاء في جسدها عدا جوهرها المعطاء . همست وشفتاها المكتنزتان تكاد تلتصق ببطنها المنتفخ " إلهي ... امنح بشرته بعضًا من نور قلبي العامر بالإيمان".

الأدعية اليومية ، الهمس للأجنة في أحواض الاستحمام .. ولحظات ما قبل النوم ...لا يكفل تحقيق الأماني لكل الأمهات . ولم

يضمن لأمي اقتناء طفل بملامح منمنمة ، شعر أملس ، وبشرة فاتحة ..

لم يملك القدر سببًا منطقيًا واحدا يجعلني أقل سوادًا .. حتى وإن كان اسم والدي (فوزي الكويتي) ، كما يلقبه أهل والدتي الأميركية .

جاء (فوزي) على عكس ما تعرفه (جوان) عن أبناء منطقة الشرق الأوسط، في كل شيء .... وأهم شيء .

السواد الذي تدثرت به ملامح (فوزي) فاق سواد بشرة (جوان) التي لم تصنف على أنها (سمراء) يومًا ما .

كان ذلك الشاب القادم من تلك الصحراء البعيدة مغايرًا لحلمها اللامحدود ، وثقافتها المحدودة ... مشحونًا بالحب والنجاح ، مغموسا بالذهب الأسود ، كالذي يغمر بلاده الغنية .

خلاف ما توقعت هي ذاتها ، أسرها لونه الليلي لحظة إلتقته في أولى أيامه الدراسية ، مبتعثا من وزارة التعليم العالي في الكويت لدراسة اللغة الانجليزية ، تأهيلا لدراسات عليا في فن الإخراج المسرحي .

في ذلك الصباح المختلف ، وفي مركز اللغة (ESL) التابع لجامعة شيكاغو ، أطل والدي (فوزي) بوجهه الأسود اللامع ، مخترقًا قلب والدتي (جوان) ، السوداء ، التي طالما حلمت بفارس أقل سوادًا ...

لتبدأ حكايتي أنا ...

(جَمال)...

نطفة التماثل اللوني ..

اختلاف الانتماء ، الدين ، اللغة.

حكاية أستمتع بكتابتها مذ أيقنتُ أني بالنسبة للعالم كله ......

أســــــــــود

هجيـــــن

لـ (جوان) فارس رسمه خيالها منذ مراهقتها المبكرة ... وسيمًا ، مفتول العضلات ، وببشرة أقل سوادًا من كل رجال محيطها .

في سنوات الدراسة الثانوية ، ركنت مشاعرها في زاوية ما، خشية الارتباط العاطفي بمن لا يستحق عشقها ... ولا يتلاءم وحلمها .

كانت تراقب الجميع ، تشمنز من فتيات مندفعات للجنس الآخر في علاقات وقتية ، وتنفر من شباب يبحثون عن أمسيات يقضونها صحبة فتيات متحررات.

هكذا كانت تراهن (جوان) ... متحررات ، ساذجات ، لا يدركن من الحياة إلا قشورها .

بقيت هي ، متحفظة .. متمسكة بقرارها عدم الإنجراف خلف تيار العلاقات الذي يعصف بأروقة مدرسة مراهقة ... باستثناء لحظات عابرة تقضيها في التعرف على أفكار زملائها وهواجسهم... باحثة عن ارتباط عُذري مقدّس ، بفارس يشبه فارسها المتخيَل فقط .

في تلك المرحلة ، آمنت (جوان) أن حلمها لن يتحقق .

بعد سنوات رحلتها المدرسية تلك ، اكتشفت الكثير من القبح المدثّر بالبشرات الفاتحة ... فكلما تصورت أنها أمام فارسها الوسيم . ابن البشرة الأقل سوادًا ، فوجئت بطبائع لا تحتمل ،

ووعي لا يناسب طموحها .. ورغبة هذا (الفاتح) في علاقة أعمق من مجرد كلمات ، طالما أنه محط إعجاب الفتيات !

عندها ، أضافت (جوان) عنصر الوعي ، وخطوطا أخرى عديدة لملامح ذلك الفارس ..

لم يعد فارسها المتخيل ، مجرد وسيم ، مفتول العضلات ، وببشرة أقل سوادًا فقط .

* * *

لحظة وطئت قدماها أرض (الحرم الجامعي) ، قررت أن تفك قيود (اللون) التي ظلت تكبلها منذ الطفولة .

بعيدًا عن الأحلام ، تعرفت (جوان) على (تويتش) زميل الدراسة المتفوق ، أصغر طالب جامعي يعينه بروفيسور (نيل) مساعدا له ، وبديلا عنه عند تغيبه لأغراض علمية.

منذ أن تسلم (تويتش) دفة تدريس محاضرات تخصص إدارة الأعمال (BBA) ، أصبح مرئيا بالنسبة لـ (جوان) التي لم تكن تلحظ نظراته من قبل .

كان حديثهما الأول ، صادما بالنسبة لها ، حين عرفت أنه أمضى سنوات الدراسة الثانوية في محاولة التعرف عليها ، وهي التي لم تلحظ أنه درس في المدرسة ذاتها !

ببشرته الداكنة ، لم يمثل (تويتش) طموحها ، لكنه كان الأفضل في ظل خيارات لونية مماثلة .

كان واقعيًا ، ملائما لكيانها الضارب في القدم ، مناسبا لمحيطها ، ومحيط أجدادها .

مثاليته توحي بمستقبل راق ، تماشى وقناعاتها الجديدة ، في البحث عن حبيب يؤمن لها حياة مرموقة ، بعيدًا عن صخب أحياء السود وفوضاها.

بقبولها ارتداء خاتمه المتواضع ، واستقبالها قبلته الخجولة. ارتبطت (جوان) بـ (تويتش) .... رسميًا .

بعد أسابيع من اللقاءات المثالية ، مازال (الخطيب) بعيدًا عن أشيائها الحميمة .

لم يخترق تلك الزاوية التي ظلت مركونة في مكان ما . لم يحمّلها بعبء الشغف الذي يثقل كاهل العشاق .

وتظل (جوان) تتساءل كلما عادت من أمسية قضتها صحبته:

"ما المشكلة ؟ لم لا أشعر بالسعادة ؟ ما الذي ينقص علاقتنا ليتوقد قلبي بالحب؟! "

بعد سنة ونيف من العلاقة المتزنة ... حد الوقار ، الناضجة... حد الجمود ، قررت (جوان) أن تعيد صياغة حياتها ، حين سمعت (أوبرا ونفري) تقول في إحدى حلقات برنامجها الذي لا تفوته معظم نساء شيكاغو :

"نحن من نصنع مصائرنا ، ومصائر أولادنا أيضا" .

عندها قررت جوان أن تخطط لمصيرها ، أعادت لذاكرتها ملامح ذلك الفارس الذي أرادته دومًا .

أقنعت ذاتها أن جمود العلاقة بينها وبين (تويتش) سببه رغبتها الكاملة بالإرتباط بشاب تغلف ملامحه صبغة فاتحة ، فلم تثنها نجاحات (تويتش) عن قطع علاقتها به ، خاصة بعد أن تذكرت رغبتها في الحصول على طفل أسمر لا أسود...

نحو صنع المصير ... قررت (جوان) أن تتزوج من تحلم به فقط ، وتوقفت عن مواعدة (تويتش) الرجل الذي تتمناه معظم فتيات محيطها .

أصرت على البحث عن (مشروعها) الهجين...الذي يتماثل في ذاته مع السود ، ويختلف عنهم ببشرة أقل سوادًا .

لم تحلم (جوان) بـ (مشروع) أبيض على الإطلاق .. فلم يقو أصحاب هذا اللون على تحريك مشاعرها من قبل ، خاصة أولئك الشقر الذين تؤمن أن لونهم نقيضًا لدواخلهم . أرادت (مشروعًا) هجينًا.. يكوّن معها المصير الذي يليق بها وبأطفالها.

كانت تفضي لأختها الكبرى (نتاشا) بتلك الأفكار المهجنة ، فتجيبها بفم كبير محشو بالأسنان البيضاء ، المصفوفة بعناية :

- نحن في شيكاغو يا عزيزتي .. لمَ سيعاني ابنك المستقبلي مشاكل العنصرية؟

لـ (جوان) هواجس أخرى :

- هل تعرفين أين ستقضين بقية حياتك ؟
- نعم أعرف ..هنا ..نفس الولاية ، نفس الحي أيضًا .. قد أنتقل من منزلنا هذا لكني لن أبتعد بالتأكيد ، فإذا لم أقض سنواتي القادمة في منزل حبيبي (بيرك) ، هذا يعني أنني تزوجت من بديله (جاشوا) ...

* * *

خلاف اختها (جوان) ، تسعد (نتاشا) بفرصها المحدودة في الحياة .. لا ترى تواضع الحي الذي تقطنه ، في حين ترى بوضوح أن جميع سكانه يعتبرون منزل عائلتها أنظف وأرقى منازل الحي .

حتى حين تجرأت وحلمت بدراسة الجيولوجيا التي تعشق .. استغنت عن حلمها بسهولة مع أول نصيحة أبوية قدمها لها مدرسها المفضل :

" أعيش بين الصخور .. أدرك أني سأعود للصخور ذاتها .. لأتحلل وأتحول إلى بقايا كائن عضوي ، ينتج أغلى معادن العالم ،

من يدري قد تدر بقاياي على الأجيال القادمة مبالغ طائلة ، لم أحصل عليها وأنا أمنح هذه المهنة جل حياتي ..!

أعرف أن معظم الطلبة يطلقون علي مسميات ظريفة .. حين أغضب يتهامسون بينهم عن الصخور النارية ، حين أحزن يسألونني عن الصخور الرسوبية ، وحين أبتسم في وجهك أنت بالذات يصنفوني ضمن الصخور المتحولة.

أسعد كثيرًا بتسمياتهم تلك ... وأحزن لأنهم لن يحفظوا أيا منها بمجرد خروجهم من باب الفصل.

أتعلمين أني أحتفظ بمثلها لكل واحد منكم .. أرى (جوي) عنيدة كالصخر الجيري ، وعلى عكسها (نيثن) هش كحجر الخفاف.. أما أنتِ يا (نتاشا) أراك مثل صخور الجرانيت التي شكلت قارات العالم . ظاهرك بارد ، هادئ .. وباطنك كتل منصهرة. لونك الداكن يذكرني دائما بمعدن الماجنيتيت .. أسود كسواد بشرتك ، يمتلك خاصية مغناطيسية كما تفعلين أنت ، وصلب لا يتفلج كصلابتك وقوة بأسك.

أنت أفضل طالباتي على الإطلاق .. كلما نظرت لعينيك المتحجرة استعدادًا لمعلومة جديدة ...كلما شعرت بالألم الكبير على مستقبلك .

عزيزتي نتاشا .. ذكاؤك يبهرني ، وعشقك للصخور يأسرني.. لكني أخشى أن تتفتتي بعد سنوات قليلة وتتحولي إلى مجرد معلمة في مدرسة ثانوية لا تجمع إلا الحثالة .

مدارسنا يا عزيزتي بيئة جيدة للأكسدة ...المعلم كالأوكسجين.. والتلاميذ كالحديد ، لا يجتمع الأوكسجين بالحديد إلا وأنتج الصدأ الذي لا يكتفي بتآكل السطوح ، كما تعلمين .

سيفتت الصدأ روحك .. ويحولك إلى آلة لا روح لها .

اتجهي لعلوم الكمبيوتر .. أتصورها أكثر نفعا لك .. ستدر عليك أموالا كثيرة ، هكذا بت ألحظ كل من يعمل في هذا المجال المهم ، أظن ذلك أفضل بكثير من أن تتحلل أمعاؤك بين مسامات الصخور"

* * *

كانت (نتاشا) أول من غادر المنزل ، الحي ، المدينة بأكملها. اتجهت إلى جنوب إلينوي .. لتدرس علوم الكمبيوتر في كلية (جان أي لوجان) في مدينة (ماريان) الصغيرة جدا . بينما تقيم في (كاربونديل) مدينة أخرى متاخمة ، أكبر حجمًا ، تضم جامعة ومساكن للطلبة ، لا تبعد عن (ماريان) أكثر من نصف ساعة .

في تلك المدينة الجامعية حياة أكثر حيوية من ذلك الموات الذي يعم (ماريان) ، والذي لم يكن ليتسق مع شخصية اعتادت على العيش في قلب الفوضى والصخب .

لم تكن طموحات (نتاشا) تعجيزية .. جل ما سعت إليه تسديد تكاليف الدراسة التي لن تستطيع عائلتها أن تعينها عليها ، فاختارت قضاء نصف يومها في مدينة (كاربونديل) خلف (كاونتر) الـ (المكدونالدز) الذي يتوسط مجمّع الطلبة... متجاوزة عن معاناة تكتبها ليليًا لأختها جوان :

" في (المكدونالدز) كثيرًا ما أتمنى الحصول على أقدام إضافية تعينني . طابور الزبائن لا ينفك يُشحن بطلبة جامعيين يجدون في وجبتنا المغمسة بالدهون وسيلتهم الوحيدة للاستمرار في اليوم الدراسي ، دون الحاجة لزيارة مطاعم أخرى ، قد تبدو وجباتها صحية أكثر لكنها مكلفة بالنسبة لطالب اعتاد تأمين حياته عبر أعمال متواضعة ، يقضي نصف يومه في ظلها ، بعد ساعات صباحية دراسية مجهدة.

في مثل مدننا الجامعية ، يعتاش (الماكدونالدز) على محدودية قدرات الطلبة، وعجزهم عن قضاء نصف النهار في توليف وجبة تتطلب جهاز طهي لن تتسع له غرف (الدورم) الضيقة .

بفضل ذلك الحشد (الماكدونالدزي) أتمنى أن أحظى بأقدام إضافية . وكلما شاهدت أحد البدناء تذكرت أنه مصدر تعاستي بكرشه التي لابد عبأها للتو بطبقات من الهامبورغر ، كنت أؤمن يوما ما أنها شهية..!

ضياع شهيتي لتلك الوجبة المضاعفة من اللحم المقدد إحدى حسنات العمل وراء ذلك (الكاونتر) اللامع بسبب الدهون لا النظافة...كم كنت أعشق تلك الوجبة التي قررتُ ألا تتجاوز المرة الواحدة في الأسبوع ، حفاظا على جسد أعلم أنني لولاه لن أتزوج في ظل بيئة سوداء معظم نساؤها يتحلين بالقوام الممشوق.

وجبة أسبوعية واحدة كانت كفيلة ببناء جسر من العشق .. لم تكسره تحذيرات الأطباء الذين يزجون بنصائحهم في برامج (التوك شو) ..

إلى أن عملت في مكان كنت أحب ارتياده .

فصارت رائحة اللحم المقدد تدفعني للرغبة في الإستفراغ بفضل التصاقها بكل جزء في المكان .. وإجباري ليليًا على اصطحابها معي عالقة في ملابسي الداخلية ..وجسدي أحيانًا.

بعد أن كنت أتلذذ بقرمشة أصابع البطاطا المقلية ، بت أكره رؤيتها تتقلب في ذلك الوعاء المصقول ، كلما تذكرت أنها تُغمس في زيت عكر .. يسكبه (راي) مع أولى ساعات الصباح ولا تزيله (ساندي) إلا لحظة إغلاق المطعم في المساء.

في (المكدونالدز) أضعت طبيعتي أيضا منذ اعتدت أن أنحّي انوثتي جانبًا ، بعد أن كنت أستخدمها في الأيام الأولى للعمل كما اعتدت أن أفعل أولى سنوات الدراسة الثانوية ، حين اكتشفت في تلك السن المبكرة أن الابتسامة قادرة على منحي ذلك البريق ، بعد أن لمحت ابتسامة معلمتنا السوداء ، الجميلة (سارا) ، أجمل إمرأة في المدرسة ، يعشقها الطلاب قبل الطالبات ، حتى البيض منهم ، يرون في ابتسامتها بريقا لا تملكه المدرسات الأخريات وإن كن شقراوات .

بعد أيام من الابتسامات الحقيقية ، المدفوعة بطبيعتي الأنثوية الجامحة ، اكتشفت أن الزبائن يتعاملون معي كإحدى أيادي (المكدونالدز) لا أكثر .. لم يعد أيًا منهم يلاحظ أني أنثى . ابتسامتي تقابل بالمثل لأنها حالة من الاعتياد ليس إلا .. خاصة حين لاحظت أنها تماثل ابتساماتهم لزملائي ، بعد أن اعتقدت للحظات مجنونة أنهم يعنونني بها وحدي .

عندها فكرت أن أحتفظ بطاقتي الأنثوية لوقت الحاجة... من أجل (بيرك) مثلا".

* * *

لا تملك (نتاشا) من يومها المشحون بالدراسة والعمل ، إلا تلك اللحظات التي تكتب فيها لأختها (جوان) عن يومها الدراسي

تارةً ، وعن معاناتها في العمل تارة أخرى .. في غربة تبعدها عن دفء العائلة .

تكتب كل ليلة ما تقوى على خطهِ ، تكمل في الليلة التالية .. وتبعث بالرسالة عبر مكتب البريد الذي تسعد بزيارته كل أربعاء ، يوم إجازتها ..

استمرت غربة (نتاشا) عن بيتها ، حيها ، مدينتها الصاخبة، فبقيت أنوثتها مؤجلة لحين الحصول على شهادة تؤهلها للعمل في شركة محترمة تتناسب وأملها العابر بالزواج من (بيرك) طالب الطب المجتهد . ابن شيكاغو .

لم تسع (نتاشا) لخلق علاقة مع (بيرك) .. تؤمن بالقدر الذي يتغنى به الأب (جونز) كل أحد في الكنيسة ، تعرفت عليه في إحدى المحاضرات التي جمعتهما بالخطأ.. فظلت تنسج معه ذلك الخيط الرفيع لعلاقة مرسومة الأهداف ، في حين آمن هو بالصدف الجميلة .

وجدت فيه سلوى غربتها ، ووحدتها ، لكنها أدركت ضرورة نَسج خيط إضافي أقل وهجًا ، وأكثر يقينا ، يضمن لها علاقة أبدية. فكان (جاشوا) موظف البريد الذي دغدغها بملاحقاته كل أربعاء ، فأهبته ليكون الاحتياطي الأول لتحقيق حلم تكوين عائلة قد لا يقوَ (بيرك) على تحمّل مسؤولياتها.

دينزل واشنطن

لا تقنع (جوان) بمخططات أختها العابرة ، المحدودة . تظل تفكر في مستقبل مفترض لا تعرفه ، مستقبل قد يقذف بأطفالها في بلاد أخرى ، يحتاجون فيها أن يكونوا وسطيين ، فأرادت طفلا يقف في المنتصف في جميع الأحوال .

ظلت تبحث طويلا عن زوج (مناسب) ، ببشرة سمراء... يمنحها ذلك الخيط الذي يربطها باللون الآخر ، ويسهل غزله ضمن نسيج عائلتها السوداء الصغيرة المكونة من (ناتاشا) أختها الوحيدة ، تكبرها بسنتين ، تكافح وحدها في الجنوب (الإلينويي) . (جيسون) أخاها الوحيد ، يصغرها بأربع سنوات ، في السنة النهائية من الثانوية العامة ، يأمل الحصول على منحة من جامعة (سانت لويس) لتفوقه في لعبة كرة السلة .. ويفضل أن يُلقب بـ (black magic) تيمنا ببطله المفضل (إيرل مونرو) الذي أسر القلوب الأميركية في زمن ما .

لم تحظ (جوان) بغيرهما ، والدها (ديفيد) ، ووالدتها (سابرينا) قررا ألا ينجرفا وراء غريزة التكاثر التي تجتاح أحياء السود .

منذ أن أنهى والداها دراستهما الجامعية ، أصبحا لا يشبهان باقي سكان الحي ، رغم اعتدادهما بهويتهما وانتمائهما الذي يتغنيان به يوميًا على أنغام ساكسفون (لويس آرمسترونغ) .

حاول (ديفيد) و(سابرينا) حماية أطفالهما من محيطهما الذي لم يقويا على تركه ، بعد تجربة فاشلة في إحدى الضواحي المحترمة ، حين أنفقا كل مدخراتهما للسكن في حي (أبيض) أنيق لم يتقبلهما ، لفظهما بعد أسبوع واحد بحجج مزيفة مدفوعة بحقيقة عجز الحي عن قبول شوائب ملونة .

عاد بعدها (ديفيد) إلى الحي الأسود ، جارا وراءه (سابرينـ)تـه ويقين باستحالة تمازج الألوان .

تلقائيا ، دون تلقين ، نقل ديفيد ذلك الاحساس بالإختلاف لأطفاله الثلاث ، خاصة (جوان) التي اعتادت تدوين كل ما يخص عائلتها . متوقفة عند تجاربها المؤلمة .

لم يفطن (ديفيد) لذلك الهاجس الذي بات يسكن جسد طفلته الصغيرة .. لم تشغله كلماتها المدفوعة بالخوف من عالم كانت تسميه (جوان) بـ (العالم الآخر) .

إلى أن أدرك ذلك فجأة ، حين لاحظها وهي تتحدث عن فرص البيض في الحياة، النجاح ، والسعادة ...!

عندها فقط ، عرف (ديفيد) أن كل ذلك الفخر الذي يكنه لانتمائه ، عبر تفاصيل حياته اليومية ، لم يؤثر في فتاته ، ولم يعلق في ذهنها إلا التجارب السيئة فقط .

لم تنجح محاولاته المتواصلة في منحها إحساسًا عظيمًا بالإنتماء . فما أن تتخطى الشارع الذي يفصل حي السود عن

الطريق الرئيسي ، حتى تبدأ بفقدان ثقتها بنفسها.. لتعيش أحلامها الخاصة بالبحث عن فارس يمنحها الحب والهجين معا .

* * *

في إحدى صباحاتها الممزوجة بالحلم ، أثناء استعدادها للذهاب للعمل ، راحت (جوان) تجوب محطات التلفزة .. ففغرت فاها حين لمحته على الشاشة ...

نجم أسود .. بشرته تكافح للتمسك بسوادها وإن اقتربت من اللون الفاتح على استحياء . فبدا صاحبها أكثر فخرًا بانتمائه .

في ذلك اليوم من شهر إبريل ، كان الجميع يحتفل بأبطال (الأوسكار) لعام ١٩٨٩ ، فبدأ برنامج (صباح الخير أميركا) باستضافة النجوم منذ انتهاء الحفل في أواخر مارس .

كان (دينزل واشنطن) شمس ذلك الصباح ، والعديد من الصباحات الأميركية، منذ حصوله على أوسكار أفضل ممثل مساعد عن فيلم (جلوري) الذي لم تشاهده (جوان) بعد .

بدا أنيقا ، مهذبًا على عكس ما اعتادت من رجال محيطها . بوجه صباحي بشوش ، وعلى غير ما توقعت من رجل يحمل بشرة تقترب من لون بشرتها ، وتقاطيع مطابقة لحجم تقاطيعها،أطل ذلك

النجم الوسيم ، بابتسامة أكثر وهجًا من ابتسامة المذيع المغموس بالفانيلا.

إلتصقت (جوان) بشاشة التلفزيون ..مدت يدها تلامس السطح المصقول..وخزتها الشحنات الكهربائية الغافية على سطح الشاشة .. دققت النظر في وجه (واشنطن) ..بدا هادئا ، بملامح متناسقة بعيدًا عن العنف الذي غلف تفاصيله في أفلامه التي تستعرضها خلفية الشاشة .. تمنت تقبيله قبل أن تغادر للعمل ... مدت شفتاها المكتنزة ... أغمضت عينيها..وما إن اقتربت من صورة شفتيه على الشاشة..حتى جلجلت ضحكات المذيع الأشقر تجاوبًا مع دعابة (واشنطن) الجريئة حول التصريحات الخائبة للرئيس (بوش الأب) ، الذي مازال يتخبط في سنته الرئاسية الأولى .

بعين نصف مفتوحة كانت (نتاشا) ترصد المشهد الرومانسي المبتور.. ابتسمت وهي ترقب اختها التي لا تلتقيها إلا في الأجازات الدراسية .. شعرت بشوق كبير للاستماع لتلك الأحلام (الهجينية) التي تسيطر على عقل أختها الصغيرة .

لاحظت (نتاشا) توتر (جوان) التي لم تشأ مغادرة المنزل و(واشنطن) مازال يملأ فراغا كونيا ستعود إليه بعد انتهاء البرنامج مباشرة...أرادت الاستمتاع بسواد يماثلها لم تمنحه

الفرصة من قبل ... سواد سعت لكبحه تحت زيف الأصباغ وكريمات التمليس .

تعمدت (نتاشا) التقلب على سريرها ، لتصدر صريرًا أفاقت على إثره (جوان) من لحظة التوحد تلك .

داعبتها (نتاشا) :

- أظنه لا يناسب طموحك ..لا يناسب أطفالك المستقبليين . بشرته ، ملامحه تنضح بالإنتماء !

انتهى البرنامج .. تلاشت ابتسامة (دينزل واشنطن) من شاشة الصباح الأميركي ، لكنها ظلت تسكن خيال (جوان) .

تمددت صورة (واشنطن) في كيانها ... أزاحت عن ذلك الكيان أفكاره المتزمتة ، تفحصت الصورة في مخيلتها .. توقفت عند سواده الأخّاذ ... ركنت رأسها على زجاج الحافلة وراحت تحلم .

ترجلت من الحافلة على عجل ، تحاول تجاوز ذنب التأخير الذي تقترفه للمرة الأولى . دلفت مركز اللغة حيث تعمل . قدمت اعتذارها للمديرة البيضاء الودود . اتجهت لمكتبها بخجل وهي تحاول تفادي نظرات زميلتها (ميليسا) مسؤولة طلبات الالتحاق بالمركز ، والتي تحتاج (جوان) دائما لتنظيم الملفات وإضافة محتواها للسجل الخاص بالجامعة .

(ميليسا) تكبر (جوان) بعشر سنوات ، تعملان معا منذ ثلاث سنوات ، لكنهما لم تتخطيا مرحلة الزمالة بعد ، كانت (ميليسا) تسعى لكسر حاجز الزمالة هذا ، لكن (جوان) لم تشأ التورط في صداقات قد تسبب لها إحراجا يوما ما .

* * *

تعيش (جوان) في حي يعج بمراهقين يخفون تحت تلابيب غير متناسقة أسلحتهم المتاحة من مسدسات وسكاكين ، ويحملون بأيديهم أجهزة تسجيل تبث ضوضاء سمعية تدعى (راب) ، يلعب بين تجمعاتهم أطفال تشربوا مصطلحات لا تعلو عن مستوى الأعضاء الجنسية .

أما المنزل الذي تقطنه فلا يتناسب وزيارة صديقة شقراء ، مهندمة ، مكتبها يحفل بالصور العائلية الرائعة ، كما في إعلانات شركة (كوداك) للتصوير !

كما أن اللغة المتشابكة السريعة بمفرداتها الخاصة ، المتداولة في منزل (جوان) ، لن تحتملها ضيفة إعتادت على الحديث بهدوء وسلاسة تتناسب وقدرات الأجانب الذين يكتظ بهم مركز اللغة ، خاصة أولئك القادمين من دول شرق آسيا ، حيث

تضطر (ميليسا) إلى التعامل معهم بمستوىً بدائي، يتناسب وطريقة نطقهم البطيئة ، التي لم تسلبهم التفوق الدراسي .

رغم خجل (جوان) من محيطها ، إلا أن جميع سكان الحي ينظرون لعائلتها بفخرٍ مشوب بالغيرة أحيانا ، فوالداها ارتادا الجامعة ، الأب قانوني ، والأم مدرسة علوم ، منزلهما يمتاز بالنظافة ، ولديهما حديقة خلفية تحفل بالنباتات الموسمية .

لكن (جوان) كانت تشعر دائما أنها أقل من أولئك الشقر !

"كيف أجرؤ على توثيق علاقتي بميليسا ؟ .. هي صورة عن الجمال الأميركي ، وأنا صورة عن قبحه " .

هكذا كانت (جوان) تحدث نفسها حين تركب الحافلة متجهة إلى منزلها ، وعيناها معلقة بـ (ميليسا) التي تتجه إلى حيث الأماكن المخصصة لسيارات الموظفين . ويداها تحاول السيطرة على (تنورتها) القصيرة المتطايرة وشعرها الأصفر الحريري .

الجمال الأميركي !

لم يَدُرْ في خلد (جوان) أن (ميليسا) تعيش في منزل صغير متهالك مكون من شقتين .. إحداهما تقطنها (ميليسا) وعائلتها (الكوداكية) ، والأخرى يقطنها شاب أبيض (هيبيّ) لم يمسس جسده الماء قط ، يصدّر عفنه للممر المشترك ، فتضطر (ميليسا) أن تسد فتحات أنفها الصغير عند اجتيازه ، كآخر طقوس الأناقة التي تمارسها منذ أولى ساعات الصباح إلى أن تعود إلى شقة لا تقل عفنا ونتانة عن ذلك الممر المفعم بالأجواء (الهيبيّة) .

لم تسلم شقة (ميليسا) من الهلاك ...الماء يتسرب إليها من جميع الأركان ، وساكنيها لم يعتادوا القيام بأي مجهود عدا الاستحمام ، وارتداء ما يقع تحت أيديهم من محتويات متناثرة يحفل بها مكانهم الصغير ، أو ما اشتروه مؤخرًا ، بناء على هوس استهلاكي يعوضون به ما يفقدونه بين هضاب الملابس التي تملأ منزلهم المتواضع .

تعيش (ميليسا) وسط أكوام من ملابس يعود تاريخها إلى سبع سنوات ، هي عمر زواجها بـ (رَش) ، فتي الأشعة الوسيم...ومنذ أن أنجبت (كيفن) بدأت الأكوام تستقبل قطعا أخرى من اللعب ، وغيارات طفلهما الداخلية أحيانا ..!

لم يلحظ (رَش) و (ميليسا) تلك الأكوام على الأطلاق ، كانا دائما في منتهى السعادة ، وإذا ما شعرا بامتعاض لفقدان غرض مهم ، يرددان " أوكي ، لا بأس" إلى أن جاءت لحظة (الرؤية)

حين لمحا طفلهما (كيفن) يلعب بالواقي الذكري الذي توارى تحت ركام حياتهما الفوضوية قبل يومين ، بعد ممارسة جنسية استلذا بلحظاتها وهما يتقلبان على تلك الأكوام الرخوة من الملابس .

كان كلاهما يراقب (كيفن) وهو يلعب بأخوة (منويّين) ، محشورين في ذلك الواقي المتخثر ...

تجمد الأبوان في مكانهما إلى أن سقط (كيفن) مختنقا بالواقي الذكري ومخلفاته، مد (رَش) يده لجهاز الهاتف .. لم يقل للنجدة سوى : " أعتقد أن كيفين يموت الآن"

ولم تبرح (ميليسا) مكانها ذلك اليوم !

نُقل (كيفن) لأقرب مشفى ، كانت تلك اللحظة الأخيرة التي يشاهد فيها (رَش) و(ميليسا) طفلهما الوحيد ، بعد أن تم تسليمه لمؤسسة الخدمة الإجتماعية بناء على اتصال من المشفى يفيد بكارثة مرينية ، معوية ، من نوع خاص ، أذهلت الدكتور الذي أشرف على الحالة ، وأدت بمتدربته إلى التقيؤ بمجرد معرفة طبيعة المادة التي ابتلعها الطفل ... تأكدت بشاعة الكارثة بشهادة مُسعفيْن صعقتهما كتل القذارة التي أعاقت دخولهما للمنزل ... فآمن موظفو الخدمة الاجتماعية أنهم أمام أبوين غير مؤهلين لتربية طفل ، وإن كان طفلهما .

اختفى (كيفن) ، لكن بقاياه لم تختف في منزل لا تغيره الكوارث . ظل الزوجان بانتظار من ينتشلهما من فشلهما ، ويعيد لهما طفلهما .

لم يجدا أفضل من أحد برامج إعادة التأهيل الذي يستعرض فيه مقدمه الطبيب ، قدرته (الخرافية) على حل المعضلات في ساعات معدودة ...

بانتظار دورهما في المشاركة في برنامج (د.فيل) ، يظل الزوجان ممددان في إحدى زوايا المنزل المهملة ، يتابعان الحلقات المعادة من برنامجهما (الحلم) ، يرميان بعلب (السوشي) الفارغة بجانب تلك الأكوام ، ويبتسمان لأجمل المشاهد التي تستعرض نتائج تنظيف أحد البيوت .

ولأن (ميليسا) كأي شقراء ..تتقن رسم السعادة ..استطاعت أن تحافظ على ابتسامتها الهادئة ، لا تفقدها إلا في لحظات الانهيار السرية التي تحرص ألا تخرج عن نطاق شقتها المكتومة .

لكن (جوان) ظلت تشعر بالخزي من صداقة إمرأة تشع بهجة كَشخصيات صور (كوداك) !

* * *

إعتذرت (جوان) عن تأخرها غير المقصود .. أسرّت لـ (ميليسا) أن (دينزل واشنطن) كان السبب ، ابتسمت (ميليسا) كعادتها :

- ليتك لم تتأخري اليوم بالذات .. جاءني من يفوق (واشنطن) وسامة .. يرغب بالالتحاق بدروس المركز .
- ما عساي أن أفعل برجل أجنبي ، هل سنتفاهم بالإشارة ؟ (ضحكت جوان)
- يحفظ بعض الجمل ، وينطقها بشكل جيد ، العرب سريعو التعلم ومخارج حروفهم جيدة .
- عربي ؟!!
- لو أنني لم أطلع على جواز سفره لاعتقدته أمريكيا...هو أسود أيضًا.

لم تستطع (ميليسا) التعامل مع الموضوع دون أن تضيف (أيضًا) ..لأنها تعلم أن (جوان) السوداء لا يمكن أن تواعد رجلا أبيض ..!

لاحظت صمتها ، فأردفت :
- عزيزتي جوان ، أنت بلا رفيق منذ مدة طويلة ، فكرت أنه من الجيد أن تتعرفي على شاب مثله ..إنه فاتن .
- ما هي جنسيته ؟
- كويتي .
- وأين تقع الكويت؟
- بجانب السعودية ..

لاحظت (ميليسا) الامتعاض الذي بدا على ملامح (جوان) فسارعت بالتوضيح :
- لكنهم مختلفون .. أنا متأكدة ، قبل أن تعملي في المركز جاءتنا فتاة كويتية رائعة ، ودودة ومتحررة ، سألتها إن كانت تضطر لارتداء الحجاب في بلدها ، فأكدت لي أن الكويت ليست كالسعودية .

لم تعلق (جوان) على حماس (ميليسا) ، أخذت طلب الالتحاق الخاص بالطالب الكويتي ... تفحصته .

بدا اسمه غريبا بعض الشيء (فوزي) ، لم تكن هناك صورا مرفقة مع الطلب ، فأوضحت لها (ميليسا) أنه سيأتيها غدا بالصور.

لم تضيع وقتها في فحص ورقة عارية ، ركنتها جانبا واستعدت لروتين العمل اليومي، اتجهت بعدها إلى الكافيتيريا عند بدء استراحة الغداء لتناول وجبة خضار خفيفة بعيدًا عن وجبات دسمة حولت نساء شيكاغو إلى كتل من الدهون .

جلست بجانب الزجاج تراقب الهيجان الطلابي في فترات الاستراحة ..وقعت عيناها على كلمة (فريز) تزين ثلاجة الكافيتيريا..ذكرتها الحروف الملونة باسم (فوزي).

تقول (ميليسا) أنه أسود.. خجلت (جوان) من سؤالها عن درجة سواده ، واكتفت بتوقعاتها : لابد أن بشرته فاتحة ، فالكويت ليست في أفريقيا كما أظن..!

عادت إلى مكتبها .. تناولت ملفه ، جالت بعينيها تبحث عن تاريخ الميلاد..يكبرها بسنتين فقط ...بدأت بطباعة طلب الالتحاق..وقلبها يحاول أن يخبرها ما لا ترغب بسماعه.

غادرت مكتبها في الثالثة مساء..عرّجت على فصول اللغة لتتفحص الوجوه..لاحظت أن الجميع في استراحة قصيرة قبل البدء بآخر الدروس.. دلفت إلى فصل المستوى الثالث ، تعلقت عيناها بخارطة العالم التي تتوسط الحائط ...بحثت عن الكويت ..استمر البحث لأكثر من عشر دقائق ..بدأ الطلبة بالتوافد .. أغلبهم بعيون شبه مقفلة ، تعرفهم جميعا لكنها تعجز عن تمييزهم عن بعض ، لم تشأ سؤال أحدهم ، لأنها تعاني صعوبة فهم ما ينطقون به ، كما أنها متأكدة من محدودية معلوماتهم العامة .

رمقت المغربية (آمال) ، عاجلتها بالسؤال :

- هل تعرفين أين تقع الكويت ؟
- بالتأكيد ، هنا... (أشارت باتجاه نقطة صغيرة) .

فوجئت (جوان) بصغر حجم الكويت ، تذكرت أنها في مراهقتها تمنت زيارة الفاتيكان يوما ما، فقط لتلتقط صورا لها في أصغر بقعة في العالم .. ولترى ماذا يحدها من الأطراف !

لم تكتف (آمال) بالإشارة إلى مكان الكويت على الخارطة :

- هل ترغبين بمعرفة المزيد عنها ؟

لم تجب (جوان) ، فاستمرت آمال:

- دولة حديثة ..أعتقد أن عمرها التاريخي مثل عمر أميركا .

لم يتسن لها الاستمتاع أكثر بمعلومات(آمال)، فما إن دخل أستاذ القواعد (كولمان) حتى غادرت (جوان) المكان وهي تسأل نفسها :

" وكم هو عمر أميركا ؟! "

* * *

طوال طريق العودة لم تستطع تجاهل فكرة اللقاء بـ (فوزي)، كما لم تستطع تجاهل الدهشة التي علت وجه (ميليسا) وهي تخبرها كم هو (فاتن) ، لكنها أقنعت ذاتها " ستكون أغبى علاقة في التاريخ ، عربي ! ، وقد يكون مسلما أيضًا..! يا إلهي ما أغباني ".

لم يمنحها اسمه في الطلب معلومة مؤكدة حول عقيدته ، جاء محايدًا ، لم يحتو على (محمد ، عبدالله ، أو أحمد) ..كما

عرفت الكثير من مسلمي أميركا . اسم (فوزي) أحدث من أن تكشف (جوان) كنهه العقائدي .

تمددت على السرير ، تصفحت مجلة (بيبول) وظلت تحدق بفاتنات يتمرغن بنجاح هوليوود ، تنهدت وهي تهمس لذاتها :

" فقط لأنهن شقراوات " ..

قذفت بالمجلة ، تذكرت (دينزل واشنطن) ، أغمضت عينيها وهي تبتسم.

* * *

صباح اليوم التالي لم تجد (جوان) وقتا للتجول رفقة محطات التلفزة ... لم تشأ أن تتأخر مرة أخرى .

وصلت مكتبها باكرًا ، مهندمة كعادتها ...لم تنتظر طويلا .. كان يقف عند باب المكتب بهدوء .

لم يكن (أسمر) كما تمنت .

مذ إلتقت عيناهما .. أيقنت (جوان) أن السواد قدرها مهما حاولت الهروب منه .

لم تكن عضلاته مفتولة ، لم يكن سواده أقل درجة ، لم يكن يشبه (مثالها) الذي حلمت به طوال سنواتها الماضية .

سواده الشديد ذكرها بلحظة التوحد التي عاشتها مع (دينزل واشنطن) .. عدا أن (فوزي) أشد سوادا منه ... وأكثر وسامة ...

كما قالت (ميليسا) ...كان فاتنًا .

- مرحبا ..إسمي ..
- أعرفك ..فوزي . أليس كذلك ؟
- كيف عرفتِ ؟
- أوراقك بين يدي ..

تذكرت عقيدته المجهولة ..

- لم اسمع باسمك من قبل .. عادة ما يتكدس المركز بالأسماء العربية مثل عبدالله ، محمد ، أحمد .
- لهذا السبب اسم جدي الرابع (عبدالله) .. لكني التزمت بكتابة اسمي كما هو في جواز السفر .

تململت وهي تتعرف على إنتمائه الديني ، شعرت أنها نهاية جيدة لحلم لم يبدأ بعد ... تناست فتنته ، وتوقفت طويلا عند ... سواده ، واسم (عبدالله) الذي يتوسط اسمه .

حاولت تكلف ابتسامة على شفتيها ، لكنه لم يمنحها فرصة للمجاملة ، أردف:

- السيدة ..
- تقصد ميليسا !
- نعم ..طلبت مني صورًا شخصية (مد يده بالصور) .
- نعم ، أبلغتني بذلك .. سأرفق الصور بطلبك ..هي في مكتب المديرة الآن، إن أردت انتظارها .

- أحتاج منها لورقة القبول المبدئي حتى أباشر أوراق البعثة في بلدي.
- بلدك صغير جدا .. شاهدته على الخارطة .. فاجأني حجمه.
- بلدي يحمل كثيرًا من المفاجآت .. أنا إحداها .

رافقت جملته الأخيرة تلك ، ابتسامة ساحرة علت شفتيه . تسارعت ضربات قلبها.. فكرت بانتمائه، تذكرت التخطيط المصيري الذي أوصت به (أوبرا) ، تمتمت "ما أتعسه من تخطيط" !

تساءل :
- أعتذر لم أسمعك جيدًا .
- لا شيء ، كنت أحدث نفسي فقط ، (ضحكت) .
- اعتقدت ذلك أيضا ، لكنني منذ جئت إلى أميركا ، وأنا أكرر "أعتذر لم أسمعك جيدا" لأقتنص فرصتي في الاستيعاب ، خاصة حين يكون المتحدث من السود.
- هل تعتقد أن كلامي غير مفهوم .
- هكذا هم سود الأفلام الأميركية ...(أكد مبتسمًا)

أردف :
- لكن معك كل شيء يسير على ما يرام ...

كرر ابتسامته الساحرة تلك .. هتف قلبها " ما أجمله ، وما أغباني ..عربي ومسلم أيضا" وهنت ملامحها للحظة كعجوز هرمة..ارتاب (فوزي) في صمتها المفاجئ ، اقترب منها ، سألها برفق :

- هل أنت بخير ؟
- نعم بالتأكيد .

لم يثق بتأكيدها ، يكاد يسمع ضربات قلبها المتسارعة :
- يبدو أنك لست بخير !

لم تجبه .. اكتفت بمد يديها لتأخذ الصور بصمت .

تراجع ، فاعتقدت أنه سيخرج من المكتب ..لكنه جلس على الكرسي المقابل لها .. بانتظار أي تعليق منها .

راحت (جوان) تحشر الصور بين طيات ملفه دون أن ترمقه بنظرة ، فلم ترغب أن تبدو ضعيفة أمام شاب تلتقيه للمرة الأولى.. ظلت صامته لكن قلبها الصغير لم يصمت ، توارى خلف نظرات لا تعرف وجهتها ... تارة تنظر في قلب ملفات فارغة ، وتارة أخرى ترتب مكتبها المرتب !

مضت دقيقتان على ذلك المشهد الصامت ..سألها (فوزي) بهدوء :
- هل سيطول اجتماعها بالمديرة ؟

حاولت أن تجيبه دون أن تنظر لعينيه :

- أعتقد ذلك .. سأخبرها بمجيئك .. ما كان ينقص ملفك الصور فقط.

سألها وعيناه تحاولان تفحص وجهها الذي يصر على التواري خلف عبث ظاهر بالأوراق والاستمارات الفارغة على المكتب :

- وماذا عن ورقة القبول المبدئي ؟
- سأخبرها بذلك .. لا تقلق .
- هل يمكنني أن آتي في الغد ؟
- بالتأكيد .. قد تجد ورقتك جاهزة .. من يدري !

مد (فوزي) يده مصافحا .. نظرت لعينيه مباشرة بعد أن فاجأها التصرف ، فما من مصافحات كثيرة هنا في المركز .. مدت يدها بهدوء .. اضطرت لرؤية ابتسامته الفاتنة مرة أخرى .. أزعجها أن يتكرر الهاجس في داخلها : ما أغباني !

بعد أن خرج من باب المكتب ... فتحت (جوان) درج مكتبها ، استخرجت منه مرآة صغيرة .. تسمرت ملامحها أمام المرآة ، تأكدت من أن عينيها وشتا بدواخلها..

كرهت ذاتها المندفعة .. تمتمت :

" لابد أن أكون أكثر اتزانا ..كيف لي أن أجعل من مجرد ابتسامة فاتنة دافعًا لتوتري أمام طالب لا يجيد حتى لغتي التي أتحدث بها ؟! "

لم تطل لحظات تأنيبها لذاتها .. حتى مدت يدها للملف لتحظى بنظرة أخيرة لصورته الساحرة .

ما إن خرجت (ميليسا) من مكتب المديرة حتى أخبرتها (جوان) ، بتتابع سريع ، بقدوم (فوزي) ، تسليمه الصور .. وحاجته لورقة القبول .

ابتسمت (ميليسا) وهي تسألها عن رأيها به . لم تجب (جوان) واكتفت بهز كتفيها .. لكنها أسرّت لذاتها : لابد أن أعرفه أكثر .

لم تدرك (جوان) ان قرارها ذاك كان مماثلا لقرار (فوزي) الذي ما إن خرج من مكتبها وهمّ بدخول المصعد حتى أسرّ لذاته : لابد أن أعرفها أكثر .

لم تستطع (جوان) أن تقصي (فوزي) عن تفكيرها ذلك اليوم .. عادت في اليوم التالي محصنة باتزان ظلت تشحن نفسها به طوال الوقت الذي قضته في الحافلة ، متجهة لمقر عملها .

أعدت لنفسها القهوة .. استخرجت مجموعة من ملفات قديمة، تحجز بعض الأدراج الجانبية للمكتب .. ظلت ترتب .. تعزل.. تفرز جميع تلك الأوراق بلا هدف صريح..بحثا عن شاغل يبعد عنها صورة (فوزي) الذي لم يطل غيابه حتى فاجأها بجسده المتناسق ، مستهلا صباحه بابتسامته الفاتنة تلك !

بدأ (فوزي) برنامج اللغة في الدور الأرضي للمبنى ، لكنه كان كثيرًا ما يتعلل بعدة أسباب لزيارة (جوان) كل صباح .

كانت معظم حججه متعلقة بورقة نسيها ، تأمين صحي يستفسر عن شروطه، مكان يرغب بمعرفة موقعه ... وأشياء أخرى لا تسمح له بالحديث مع (جوان) أكثر من دقائق معدودة .

بعد عدة أسابيع .. ابتدع فوزي فكرة تتيح له فرصة أكبر للبقاء ضيفا في مكتب (جوان) لأكثر من خمس دقائق . جاءها بطلب لأحد الأصدقاء من الكويت ، يرغب بدراسة اللغة في (ESL) .

بفضل رغبة صديقه تلك ، يمضي (فوزي) في مكتب (جوان) نصف الوقت المتاح للطلبة لتناول وجبة الغداء .

تلمست (جوان) مشاعر (فوزي) .. تأكدت من اندفاعه تجاهها . فصارت تلك الدقائق التي يقضيها في مكتبها أسعد أوقاتها .

لم تكن الابتسامة وحدها دليل (فوزي) لقلب (جوان) ..كان حديثه المتماسك بعض الشيء يدل على قدرة جيدة في سرعة اكتساب المهارات اللغوية .. خاصة وأنه لا يتوقف عند الحديث عن أوراق صديقه التي باتت تضيع كثيرًا ، بل كان دائم الحديث عن ذاته ، واهتماماته أيضًا .

كلما أطل عليها في المكتب ، متعللا بضياع ورقة صديقه ، وسؤال عن استمارة لصديق آخر .. كلما خلف في مكتبها رائحة عطره المميزة ، ضحكته الوقورة .. وكلماته المصفوفة بعناية من يجري حوارًا تلفزيونيًا ويخشى أن يخطئ.

كلماته العابرة عن مدينة زارها ، رواية قرأها .. جعلها تتحجج هي أيضا بأسباب لمجيئه للمكتب .. بعد أسبوع واحد استنفذ (فوزي) حججه تلك .. لم يعد هناك صديق يرغب بدراسة اللغة .. لم تعد الوزارة بحاجة إلى ورقة من المركز .. ولن تحتاج السفارة للتواصل معه في ظل وضع دراسي مستقر ومصاريف مدفوعة سلفًا .. بقي لديه حل أخير ...يكمن في :

"صباح الخير (جوان) "

هكذا أرادها أن تعي سبب صعوده للدور الرابع ، من أجل تحيتها كل صباح فقط.. تحيتها هي . فصارت تصل إلى المكتب قبل الجميع .. لتتحول التحايا الصباحية إلى فنجان قهوة مرادف لتلك اللحظات الممتعة التي لم تخلو من كوميديا تخلقها لغته المحدودة أحيانا ، ومواقف الحياة الجديدة في شيكاغو أحيانا أخرى .

أخبرها (فوزي) ذات صباح باكر جدًا :

- في الكويت إن أعجب أحدنا بفتاة قدم لها رقم هاتفه .. هل تفعلون أنتم ذلك أيضا ؟

ابتسمت (جوان) وادعت أنها تفكر .

أخرج من محفظته الصغيرة بطاقة صغيرة ، بلون (التوفي) ، قدمها لها :

- رقم هاتفي هنا .. أتمنى أن أكون أول من يوقظك في هذا الكون ، ويقول لك (صباح الخير) .

لم ترغب أن تبدو مندفعة .. لكنها كانت مندفعة ، مدت يدها للبطاقة (التوفي).. تفحصتها ..كان اسمه مكتوبا بلغة إنجليزية وأخرى لابد أنها عربية ، على الجانب الآخر .. أشارت بسبابتها المزدانة بظفر أحمر مستعار ، نهض من كرسيه على عجل .. وقف بجانبها للحد الذي يجعلها تتنفس عطره .. أشار بإصبعه لتلك الكلمات .. لامس ظفرها المستعار .. همس في أذنها :

- هكذا يكتب إسمي باللغة العربية ..

تجنب قلما أكثر قربا منه .. مد يده للجانب الآخر من مكتبها.. لامس كتفه كتفها ..تناول قلما مركونا هناك ، يتيح لـه الاقتراب منها أكثر.. كتب على البطاقة ذاتها اسمها بالعربية :

- وهكذا يكتب اسمك أيضا .

ابتسم كلاهما .. أعاد لها قلمها لتكتب رقم هاتف منزلها على ورقة ... ودعها بهدوء .

ذاب (التوفي) في كفها الساخن .

* * *

مع أول مكالمة صباحية أتقن (فوزي) تحريك الراكد في ثنايا (جوان) بجملته الأولى (صباح الخير صديقتي الجميلة) .. لم يجرؤ على البوح بأكثر من ذلك خشية تفسير اندفاع الشاب (العربي ، المسلم) .. ولم يعرف أن (جوان) لم تحتج لأكثر من سماع ذلك الصوت الساحر لتقرر أن تُبيّت جهاز الهاتف كل ليلة بجانب سريرها استعدادا لسماع صوته الرخيم ، لتشحذ بـه طاقتها الصباحية عبر كلمات تمنتها أكثر تجاوزا .

لم يكتف (فوزي) بمنح (جوان) صباحات جميلة .. أرادها أن تسعد بليال ممتعة أيضا صحبة صوته الدافئ ، وكلمات أدركت (جوان) أن بساطتها اللغوية تجعلها عاجزة عن التعبير !

بعد انتهاء العمل ، تحتضنهما إحدى مطاعم الـ (center student) في الساعة الخامسة ، لتناول وجبات الغداء المؤجلة بسبب اختلاف ساعة غداء طلبة المركز عن موظفيه .

مكالمات قصيرة ، لقاءات شبه يومية ، وعطلة أسبوعية يقضيانها في جولة طويلة على ضفاف بحيرة (ميشيغان).. يؤجران الدراجة الثنائية مرة ، ويستقلان مركب الرحلات القصيرة لقضاء نصف ساعة في البحيرة مرة أخرى .. وآحاد أخرى يقضيانها في (متحف الأطفال) المقابل لـ (ميشيغان أفينيو) مستمتعان بمزاحمة الأطفال في ألعابهم التي تشغل كل ركن في المتحف .

لم يمض أكثر من شهر على الحقيقة التي قررت (جوان) أن تعترف بها لذاتها.. لقد أحبت (فوزي) الكويتي ، المسلم ...

عشقت سواده الشديد الذي حاولت الهرب منه سابقا .. فتغزلت به يومًا :

"سوادك يمنحني إحساسًا شديدًا بالإنتماء "

أضاف وابتسامة ساحرة تعلو وجهه:

أنا أشد أخوتي سوادًا ، فاعتادت أمي أن تقول لي :

"لو ما السواد غالي ما سكن بالعين "

في سواده وجدت (جوان) كينونتها ، وفي البياض الذي يحيط بمقلتيه ، لمست النقاء الذي عاشته في مراهقتها ... خاصة حين أخبرها بمتعة ألا يلتقي الرجل جنسيًا مع إمرأة إلا حين تكون زوجته فقط !

رفقة (فوزي) أدركت (جوان) طعم الشيكولاته .

تعلمت معنى أن تعشق المرأة قدرها الذي لم ترغب به قط ، فقررت نبذ وسامة (آل باتشينو) و(كيفن كوستنر) ..وحلت مكانهما صورة (سيدني بواتيه) ، أول ممثل يصنع ، بسواده الشديد ، مسارًا جديدًا في هوليوود .

أدركت أن (كوستنر) و(آل باتشينو) ليسا أكثر من رقم سرعان ما يلحقه رقم آخر ....(بروس ويليس) ، (براد بيت) ..أشد بياضًا ، أقسى وسامة .

*   *   *

لم تعرف (جوان) عن (فوزي) سوى أن اسمه الأخير هو (مبارك) ، والده (سعيد) توفي قبل سنوات طويلة ، والدته (مرزوقة) من العراق ، إمرأة وفية ، احتضنت أطفالها الخمسة ، ولم تقترن برجل آخر ، تعيش العائلة في منزل كبير يضم بالاضافة

إلى (فوزي) ثلاث بنات (لطيفة ، مريم ، ونادية)، والأخ الحبيب (عنبر) الذي يصغره بخمس سنوات، ويمثل له صديقه الوحيد.

حين قرر أخاهم الأكبر السفر للدراسة ، أراد أن يمنح حياته معنى .. وقيمة الحياة التي يعرفها (فوزي) تكمن في شهادة عليا :

"أرغب بمعنى مختلف عن ذلك الذي يتوقعه الآخر من شاب أسود ... ما أجمل أن نكون مصدرا للعطاء دون أن يسألنا أحد..ما أجمل أن نكون مصدرًا للدهشة والجمال في عيون اعتادت أن تقسو علينا . حين كنت في السنة الأولى في المعهد المسرحي ، كان أمامي خياران، إما أن أكون ممثلا يعتليه الآخرون ليكون حصانهم عند تأدية دور الفارس ، أو أن أعتليهم أنا وأكون الفارس...

فقررت أن أكون الفارس.. حين أساعد أحدهم في مشروع تخرجه أشترط أداء دور السيد بدلا عن الخادم ، دور الشرطي بدلا عن المجرم .. هكذا أصبحت أبحث عن منافذ أنفس بها عن الشعاع الذي يسكنني .

مع تراكم الخبرات تهذبت روحي . تنازلت عن فكرة إعتلائهم أيضًا .. لم أعد أرى فيهم ذلك الند المنافس ، بقدر ما بدأت أرى في ذاتي ذلك الوهج الكامن ، كثفت خطواتي باتجاه البحث عن منافذ أخرى تشع لهم نورا لم يلحظوه فيّ من قبل ... إلى أن بت أدثر

خشبة المسرح بنوري ، وأصبحت أكثرهم وهجًا ، عندها لم يعد يعنيني أداء دور خادم بأنفة سيد. أو مجرم بثقة شرطي .

بعد سنوات الجهاد تلك أصبحت أحقهم بالبعثة الدراسية ... ولأني اكتشفت أن السوق الفني يصر على حكر لون بشرتي بأدوار الشر والعبودية ، قررت أن أصبح مخرجًا .

أن أكون الفارس لا الحصان " .

تقاسيـــم

لم تستطع (جوان) كتم سعادتها .. الجميع لاحظ تحولها من فتاة ناقمة على حياتها ، إلى أخرى تعشق ذاتها والحياة ...تعشق لونها الذي حاولت التخفيف من قتامته سابقًا ، تعشق شعرها الذي اعتادت طيه بعنف ... تعشق أن تنتمي للكاتبة السوداء (توني موريسون) بدلا عن الشقراء (دانيال ستيل) .

اجتاحتها حالة العشق تلك بعد أن بدأ (فوزي) يشعر بخجلها من بعض أشيائها ، تأكد من ذلك حين قرأت له من مذكراتها التي باتت تحملها معها أينما ذهبت .. لتقرأ له بعضًا من تفاصيلها .. روحها التي أرادت له أن يتفحصها أكثر .

لم يستطع (فوزي) تجاهل تلك اللحظة ، كانا معًا يجلسان قبالة بحيرة (ميشيغان) حين قررت (جوان) فتح إحدى صفحات مذكراتها لتقرأ له :

" حين أدخل حيـّنا أشعر للحظة خاطفة بالإرتياح جراء أصوات الأطفال التي تشع من شبابيك المنازل .. لكن ما إن ألج الزقاق المؤدي إلى منزلنا وأحشرُ بين البيوت الصدئة حتى أشعر أني أختنق ، وأبدأ بالبحث عن منفذ أختلس منه أنفاسيَ المسلوبة..

أتساءل دائما :

" لـمَ لا تسكن زميلاتي الشقراوات أحياء كأحيائنا ؟.. لـمَ لا نلتقِ بأسود غني وسعيد ، إلا مرة في العام ، ونلتقي بأشقر غني وسعيد كل يوم من العام؟! "

بدأت مذكرات (جوان) تجذب (فوزي) الذي وجد فيها قراءة لروح حبيبة تعجز عن التعبير الشفاهي أحيانًا :

" تقتنصوننا بنظراتكم .. تشكلوننا كما تريدون ..

تستلذون فرز ملامحنا ... تسلخوننا عن محيطها المتجانس، تعزلونها عن دفئها ، لتبرزوا ضخامتها .. وتمنحوننا مرآة لا تعرف جمال تقاطيعنا .. لا تدرك تاريخنا ، وتعجز عن كشف أرواحنا المثقلة بالحب ..

وفي لحظة عريًنا في أعينكم ... نمسك مرآتكم المضببة بأيد مرتعشة .. ننظر إلى تفاصيلنا بعين مدثرة بالدمع ...فنمْقتها بعد أن كنا نعشقها ... ونبدأ طقوس الولادة على أيديكم المشبعة بالذنب ؛ فنملّس شعورنا التي أحببناها منكوشة...كي لا نؤذي مقلكم التي لا حياة فيها .

نقشر جلودنا السوداء ، اللامعة ، المصقولة .. لنجانس ألوانكم الشفافة الباردة.

نرتدي وجوهًا لا نعرفها ..لا نستسيغها ...نمقتها ، فقط لنكون مرئيين في محيط لا مرئي ..

ونتحول بفضلكم إلى أشباح ....بعد أن كنا بشرًا ! "

* * *

صارت جلساتها تطعّم بشيء من المذكرات التي عنونتها (جوان) بـ (مذكرات إمرأة كانت تعشق تقاسيمها) .. مؤكدة لـ

(فوزي) مدى اعتزازها بنفسها حين كانت صغيرة لا تعرف من العالم إلا قومها ، وبعد أن تداخلت الأعراق ، وبات قبولها في المجتمع مطلبًا رسميًا قبل أن يكون شعبيًا ، بدأت (جوان) ترى ما يراه الآخرين ...وتعرفت على أشيائها بعينهم القاسية ، فوجدت أن التماثل هو السبيل الوحيد للاندماج ... ورغم إيمانها باستحالة ذلك، ظلت تحاول بوسائلها المتاحة ، التي تعدت مستحضرات التجميل ، إلى أفكار أهمها الحصول على ذرية مهجنة.

دون أي تعليق ، يستمع (فوزي) يوميًا لخطوات (جوان) نحو الانسلاخ عن جلدها .

بعد أن أنهت قراءة إحدى خواطرها ، قال لها (فوزي) مرة :

- حين أنظر لـ (بيليه) أغمض عيني .. أتخيلني أرتدي فانلته الصفراء ، أتجول بين معجبيه السود ، البيض ، الحمر .. أقذفهم بقبلاتي الهوائية ، فيغرقونني بدموع تطفو على المدرجات ... افعلي مثلي ، اغمضي عينيك ، تخيلي أنك (أوبرا وينفري) ، اعتلي منصتها، خاطبي جمهورها المنوع، ستجدين أن الحياة منحتها و(بيليه) فرص التواجد لأنهما أكثر اختلافًا من الجميع ... أكثراختلافًا منا نحن أبناء جلدتهم.. عرقهم ، وأصولهم التي تنحدر من أجمل قارات العالم .

انظري حولك ... ليست كل إمرأة شقراء (باربرا وولترز)، وليست كل إمرأة سوداء (أوبرا وينفري)..!

* * *

" اليوم شاهدتُ فيلم (اللون الأرجواني) ...بكيت بحرقة..حرقة شديدة.. ذكرتني (أليس ووكر) بكل البشر الذين يقررون يوميًا ، حشد كفوفهم لصفعي على وجهي الذي أراه في مرآتي جميل ...

فيلم يقتلني بنبشه للجراح ، وآخر يقتلني بصنع الجراح..وهوليوود خير من يصنع الجراح .... خير من يستعرض جرائم السود ، عنفهم ، فوضاهم . خير من يحول جمالهم إلى قبح.

أتساءل يوميًا :

لماذا كل الخدم في الأفلام سود .. لماذا كل السود في الأفلام خدم ؟

ما الذي تريده هوليوود منا ..؟ ما الذي ترغب بالوصول إليه..؟ .. هل تسعى لقتلنا ونحن أحياء ؟ هل ترغب بحثنا على سلخ جلودنا .. إجتثاث جذورنا ؟ هل تسعد بدموعنا قبل النوم ؟ ..

هل تعرف هوليوود أنني لم أهنأ مرة بنوم عفوي لا يسبقه تصفيف دقيق لشعري استعدادا لاستقبال وجوه شقراء، ربما لم تستحم قط ! "

دمعت عينا (جوان) وهي تقرأ تساؤلاتها تلك ، وأحس (فوزي) بتباطؤ نبضه وهو يرى الدموع في عيني حبيبته ... اقترب منها ، رفع عن وجهها خصلات من شعرها المملس.. وسألها :

- وماذا عن الملك وهو يعتلي أميركا العظمى ، مزينا سماءها بخطاباته الثورية؟
- الملك !
- مارتن لوثر كينغ ...أسود أيضا ..لكنه أبى الخدمة تحت أقدام البيض ، وصار الكل يرجو لقاءه .. كان لدي عمّ مثقف ، الوحيد في عائلتنا الذي أصر على الدراسة الجامعية ، كان يترجم لي أجزاء من خطب (الملك)...حين كنت أستمع له أشعر بأني أحلق في سماء الكويت ، أعتلي كل الرؤوس التي نعتتني بالعبد .
- في الكويت ينعتونك بالعبد ؟
- كل أسود في الخليج هو مشروع عبد يا عزيزتي ... وكل من ينعتنا بذلك يردف : "كلنا عبيد الله " ..هكذا ظنوا

أنهم يخدعون الله ... يدّعون سواسيتنا أمامه ، وفي داخلهم قرروا أن السود وحدهم عبيده !

- في أميركا كذلك ، يغشوننا باسم الإنسانية ..الانسانية المؤقتة ، فطالما أنك صديقهم يعاملونك باحترام ، نابذين العنصرية التي تمارس ضدك ، حاملين لافتات تستنكر أجسادا منحوتة بشعارات النازية ، وبمجرد أن تختلف معهم ، تتحول من صديق أسود يسكن إحدى ضواحي شيكاغو ، إلى مجرد زنجي تعيس ، يقطن أحياء التخلف والجريمة .

- حين كان عمي يبثني كلماته ، كان يؤكد لي أن الشيء الوحيد الذي أوصل (كينغ) إلى تلك القمة ، ثقافته وعلمه ...وحده العلم يجعلنا أسياد أنفسنا .. والعالم أيضًا ... لم تمهل الدنيا عمي (سالم) فرصة استكمال دراسته فمات صغيرًا دون أسباب ، اختاره الله مبكرا ، وكنت حينها في الثالثة عشر ،عندها فقط تأكدت أن الله يختار عباده السود أيضًا ... مات (سالم) ... لأن لا ذكرى له ...

وظل الملك ... لا يموت .

* * *

لم يحتج قرار الزواج لتفكير طويل .. وجدت فيه (جوان) الرجل الحلم .. ووجد فيها كيانا مختلفا ، تستر لسنوات طوال

بملامح أخرى .. فاقتلع الوجه المزيف ، لتأسره تقاطيع الوجه الحقيقي ..البريء .

في العام ذاته ، في الثالث والعشرون من أغسطس ، بعد عودة (فوزي) من إجازته الدراسية في الكويت ، أقاما حفل الزفاف.

كان حفلا بسيطا .. أجمل ما فيه ثوبها الأبيض ، وزوج محب جعلها تتوقف لبرهة عند أبواب كثيرة ، لأسئلة لم تجد لها إجابة .. لكن (فوزي) يعرف كيف يوصد الأبواب دون أدنى مواربة . فذابت الأسئلة أمام ابتسامة ساحرة لعاشق مميز.. وثوب رائع امتلكته دونا عن كل نساء محيطها اللاتي اعتدن تأجير فستان الزفاف .

في ليلتهما الأولى أبحر كلاهما في الآخر ... لمس فيها رغبة إمرأة للتو تكتشف ثنايا جسدها .. ولمست في دهاليز جسده طهرًا لم تتوقعه من شاب بعمره...فتدثرت بنوره الذي لم تكن تدرك أنه يميز بشرًا غير الأنبياء.

لتتحول بعد أشهر قليلة إلى إمرأة سوداء تعشق تقاسيمها ، بفضل رجل يخبرها يوميًا بأنها بتقاسيمها الحقيقية تبدو أجمل مما كانت عليه من زيف :

- أحبك كما أنت .. دون رتوش وزخارف ، أحب أن ألوذ بصدرك كمن يلوذ بجذوره .

كـــوني أنتِ

تمنحها كلماته قشعريرة رطبة تسري في أوصالها ، ورغبة شديدة في التسليم له ، كما أراد هو أيضا بعد أشهر من لجم رغبة فاقت رغبتها .. إلى أن جاءت ليلة الزفاف. كان كثيرا ما يؤكد لها ، أن الغوص في ثنايا الحبيبة باكرا يقتل فرحة ليلة الزفاف ، هكذا اعتاد أبناء محيطه الكويتي ، حيث تبقى الفتاة كالباب الموصد إلى أن تضمن حبيبا علنيا يحتويها ، فيستسلم كلاهما للآخر في ليلة عادة ما تكون مرهقة ، ومقززة أحيانا ، مشحونة بفرحة مبالغة لأحبة يبحثون عما يسليهم ، ويخطف من أيامهم ساعات الفراغ التي لا يسدها سوى حفلات الزفاف!

في يوم زفاف (جوان) ، ظل (فوزي) يتفحص معطيات كثيرة محاولا مقارنتها بمعطيات كويتية اعتاد عليها . حدث حبيبته عن الآلاف من الدنانير المراقة على بوابة قاعات الزفاف ، وبين دفوف (الطقاقات) .. حدثها عن (الماسكات) التي تحرف تقاطيع الفتيات الصغيرات ، وتحولهن إلى مهرجات مقززات .

لم تكن (جوان) بعيدة عن لعبة (الماسكات) ، كحال معظم السوداوات ، اللاتي يجدن في الأصباغ إشراقة يعتقدن أن البشرة السوداء تفتقرها !

حين تزوجت (جوان) بـ (فوزي) لم يدر بخلدها أن تسأله عن رأي أهله... ولم يخبرها هو بموقفهم من زواجه بالـ (الأجنبية) ، ومعاركه معهم أثناء الإجازة ، لنيل موافقة لم تأت ، لحين عقد القران الذي تم في أحد المساجد الصغيرة في شيكاغو على يد رجل دين باكستاني يعمل سائق تاكسي مساءً .

قضيا شهر العسل في (نيوأورليانز) .. مدينة بطعم (الكرواسان) ، منازلها صممت على الطراز الفرنسي ، بشرفات تكاد تحتضن المارة ، ومتاحفها الصغيرة تسيطر عليها أجواء مهرجان (ماردي غراس) السنوي . الذي يلهب المدينة بالأزياء الغريبة والاحتفالات المتواصلة .

تسكعا في شوارعها العامرة بالباعة الجائلين ، حدائقها المزدانة بالأضوية ، ومقاهيها المكتظة بعازفي الساكسفون .

بعد أن قضيا ساعة أمام غجري يتقن الرسم على الزجاج ، أسرت (جوان) لحبيبها :

- أشعر هنا بالانتماء أكثر من شيكاغو ، رغم أنها مليئة بالسود أيضا ، لكن الناس هنا أكثر تآلفا مع الملونين .

- الشقر في كل مكان يحتاجوننا ، نحن نشعرهم بأنهم أحياء، بأن الحياة تنبض من حولهم ، نحن الاختلاف الذي يتوقون إليه لحظة دخولهم إلى منازلهم الخانقة ، ونحن نحتاجهم

أيضا ، بهم نشعر أن الدنيا ملك للجميع ، كلنا يحتاج للآخر .
تأكدي من ذلك .

لحظتها شعرت (جوان) أنها تزوجت برجل حكيم ، وشعر هو أنه أمام إمرأة تعاني من رواسب سابقة ، قرر أن ينقيها منها .
كان يقتنص الفرص لنبش دواخلها ..تحريك الراكد فيها ، وتخليصها من عفن ساهمت هي في تكوينه باستسلامها لنظرات عنصرية في محيطها .

سألها مرة :

- كم عدد الشقر الذين صادفتهم في حياتك ؟
- كثُرٌ بالتأكيد
- هل تستطيعين حصر عدد الجيد منهم ؟
- معظمهم تقريبًا ، لم أصطدم إلا بقلة منهم ، في أماكن عامة .
- إذن ..لماذا تشعرين بعدم الألفة مع الآخر؟!

لم تسعفها طلاقتها في الحديث للرد عليه ، فأردف :

- لأن مشاكلنا تبدأ من هنا ....أشار لرأسه .. وأكمل :
- هل تستطيعين انكار إمتلاكك لبعض الأفكار المسبقة ..؟

بقيت صامتة .

أكمل :

- تعالي نجرب اكتشاف تلك التراكمات التي يكدس بها عقلك . اعطني مرادفات لكلماتي . عديني بإجابة سريعة دون تفكير .

أومأت بالموافقة .

- صيني ؟
- لغته الإنجليزية سيئة .
- و...؟
- يأكل الكلاب
- مجموعة من الصينيين ؟
- عصابة
- مكسيكي ؟
- مجرم
- مكسيكية ؟
- خادمة
- سمين ؟
- غبي
- شقراء ؟
- ساذجة ....(بعد لحظة صمت) ..ومحظوظة
- سعودي ؟

متخلف .. عنيف

- مسلم ؟

ظلت صامتة

- أجيبي بصراحة ، ماالذي ورد في ذهنك أول لحظة ؟!
- شهواني
- وماذا أيضًا ؟
- سادي
- وأيضا !
- همجي
- والعربي ؟
- مسلم (ابتسمت بخجل)
- هل تعلمين أن هناك دولا عربية لا تدين بالإسلام ؟
- ....
- كلنا يا عزيزتي يحمل أفكارًا مسبقة عن ذلك الآخر .. في أميركا الجنوبية أهم كتاب الرواية في العالم ... لكنكم ترون فيهم مجرد مجرمون وخدم ! في السعودية مثقفون حقيقيون .. وبالنسبة لكم مجموعة من المتخلفين ، يسكنون الصحراء ويركبون الجمال .. وهكذا ترون أبناء الكويت أيضًا...مجموعة من الأغبياء ، وهبهم الله النفط بلا سبب .

لاحظ أن نبرته بدت حادة ، فأردف بهدوء :

- نحن أيضا نملتك بعضا من تلك الافكار .. يوم سفري ظلت والدتي توصيني بعدم الأكل في بيوت الأميركان .. الشقر خاصة ، لأنها تؤمن أنهم لا يستحمون قط .

تذكرت (جوان) زميلتها (الكوداكية) (ميليسا) .

أكمل (فوزي) :

- ينفر بعض المسلمين ، من دخول بيوت المسيحيين . أنا شخصيًا ، وإلى وقت قريب كنت أشمئز من رؤية اليهود بأرديتهم السوداء وسوالفهم اللولبية .. أتحاشى الجلوس معهم في مكان مغلق ، إلى أن ابتسم لي أحد أطفالهم مرة؛ كان يركب الدراجة الثنائية صحبة أخته الصغرى . في كل مرة يمران فيها أمامي أظل أتمعن بملابس الفتاة الفضفاضة ، وشعرها الطويل ، مستحضرا العديد من أفلام الرعب .. أما أخاها فتخيلته حاخاما صغيرًا يصلي أمام حائط المبكى في الصباح ويعطي تعليمات بقتل الأبرياء في المساء .

كانت بجانبي عجوز شقراء تنظر لهما وتتمتم . فأردت أن أبدو متسقا مع أفكارها ، رغبة في الإندماج .

ابتسمتُ لها، تشجعتْ ، همستْ لي :

- أخشاهم دائما .. فهم يديرون البلاد كلها .

أكدتُ أنا :

- العالم كله يا سيدتي ...

استرسلت العجوز ، لم أفهم ما قالته بعد ذلك ، تمنيت ألا يطول حوارنا حتى لا تكتشف تعاسة لغتي . فتحتقرني أنا أيضًا . استأذنتُ هربا منها .. عندها مر الصبي وأخته بجانبي.

ابتسم الصبي : مرحبا سيدي .

ورمقتني الطفلة بنظرة بريئة محبة .

اقشعر بدني للحظة ... تذكرت الفتيات الصغيرات الاتي استعرضهن برنامج أميركي باعتبارهن مادة للسخرية، فقط لأنهن نشأن في بيئة ترى الحجاب ضرورة منذ سن السابعة...كرهت ذاتي التي تملقت إمرأة عنصرية على حساب الأطفال الأبرياء .

تساءلتُ للحظة :

ماذا لو تلتقي تلك العجوز بأمي التي تستخدم حجابها لثاما لفمها عند الحاجة ؛ الكلام ..الضحك .. عند كل فعل طبيعي تراه أمي مخجلا لامرأة في سنها ؟

هربتُ من المكان ، خشية سؤال مفاجئ من تلك العجوز التي ظلت تتمتم... تصورت أنها ربما كانت في شبابها لا تركب الحافلة رفقة إمرأة سوداء كادحة.

اتجهت لبائع (البوب كورن) .. دفعت له ثمن كيسين وطلبت منه أن يهديهما للطفل وأخته بأي حجة يبتدعها هو.. بعيدًا عني.

تضايقت (جوان) من أنها حشرت نفسها في صف العنصريين رغم معاناتها منهم ، وظلت طوال تلك الليلة تفكر في كم الأفكار المسبقة التي يكتظ بها عقلها الصغير:

أيرلندي / عنيف .

روسي / جاسوس .

بولندية / عاهرة .

إيطالي / تاجر مخدرات ......إلى أن غفت على صدر حبيبها (فوزي) .

* * *

عادا من عسلهما (اللويزياني) إلى شيكاغو ، استقرا في سكن جامعي استأجره (فوزي) لحظة بدئه برنامج اللغة ، مع تعهد بتسليم المنزل في حال عدم التحاقه ببرنامج الماجستير.

بدأ (فوزي) بالتجهيز لتبعات الماجستير وهو لا يزال يدرس اللغة ، سافر مرتين إلى واشنطن حيث سفارة الكويت... أخبره موظف قسم الدراسات العليا :

" أنت الوحيد من طلبة البعثات الذي يلجأ للسفر إلى مقر السفارة ، طلبة الجامعة لا يعانون على الإطلاق ، كل أمورهم منظمة ، لكنكم طلبة المعهد المسرحي والموسيقي ، تقومون دائما بدور كبش الفداء قبل أن تتحسن الأمور".

ولأن السفارة تضاعف من أزمات كبش الفداء ، اضطر (فوزي) للسفر مرارا والدخول في معارك روتينية مع موظفين هنود جعلوه يعتقد لبرهة أنه في السفارة الهندية..... إلى أن عاد من واشنطن دون أن يلتقي بكويتي واحد!

بعد قضاء شهرين في (ستوديو) السكن الطلابي ، انتقلا للسكن الجامعي المخصص للعائلات الصغيرة ، يقتاتان على مرتب البعثة الدراسية إلى جانب راتب (جوان) ، وعشق غلف حياتهما :

- حدثني عن دينك .. عن صلاتك التي تمارسها يوميًا .

- كلانا يعبد خالقا واحدا ... كلانا مؤمن ...فدعي الأمور تسير كما يريد لها خالقنا .

تسكنها فكرة التعرف على الآخر ، كلما تذكرت انتماء حبيب يشاركها الفراش والحياة معًا ..

لكنه لم ينر لها طريقا واحدا من طرقه الخاصة ، فظلت لغته، ديانته ، أهله ، مجهولون بالنسبة لها ... وحين يختلي بها تحت دثار واحد ، يهمس :

"أحبك كما أنتِ ، فأحبيني كما أنا ... نحن الآن في مرحلة التوحد .. كلانا يرغب أن يكون مجسدًا في الآخر ...أخشى إن حدثتك عن أشيائي تتوحدين معها تلقائيًا ودون وعي منك ، وعندما تحين ساعة اليقظة تجدين أنك أصبحت انسانًا آخر .

أعرف رجالا اقترنوا بنساء مختلفات ، بعد مرور عدة أشهر ، تحولن لنسخ عن أزواجهن ... المسيحية تحولت إلى مسلمة ، السافرة تحجبت ، المثقفة هجرت القراءة احتراما لجهل زوجها .

ما إن ينفصلن لسبب ما .. تعود المسيحية لدينها ، وتخلع المحجبة حجابها .

المثقفة وحدها .. تعتاد على الجهل وتتشبث به . لا أريدك نسخة عن أحد ...(كوني أنتِ) ".

باللصدف الجميلة ..."كوني أنتِ" جملة (أوبرا) المفضلة .

لم تكتف بردوده، راحت تبحث بنفسها عن الإسلام . محمد ، الكويت ،اللغة العربية ...أصبحت تقضي ساعة غدائها في المكتبة المجاورة لمبنى التسجيل...وبدأت تدون المرادفات العديدة التي تصادفها لتلك المفردات .

* * *

في إحدى صباحات نوفمبر الندية ... تلعب بكتل سوداء مبرومة تعتلي رأس (فوزي) ، حين قررت (جوان) أن تهمس له :

- لم نتحدث في موضوع الأطفال قط !
- أنتظر أن تبدأي أنت ، لأنك من سيعاني منذ اللحظة الأولى.
- بما أنه قراري .. أظنني حامل !

أدرك (فوزي) لأول مرة في حياته أن العبودية اختيار ، وتحول من عاشق لأميرته كما لقبها ، إلى عبد لملكته كما بات يلقبها..

لم تصادف (جوان) إمرأة مدللة كما تعيش هي ، ولم يستوعب أهلها ما هي عليه. ظلت في عيونهم الأميرة (جوان) مدللة (فوزي الكويتي).

هكذا يلقبه أهلها .

ولأنها أميرة (سوداء) لابد أن تعيش الشقاء .

بدأت معاناتها في يوليو ، بطنها وصل إلى مراحل التكور الأخيرة .. مقتربًا من نهاية جميلة لذلك الثقل الذي ظلت تحمله أينما ذهبت . وبداية أجمل لعائلة للتو تتشكل .

كان (فوزي) يحمل ثقلا من نوع آخر ... أنهك كاهله ، وآلم روحه . إنها علاقته بوالدته التي لم ترض عن زواجه قط .

ظلت محاولاته مستمرة في إرضائها .. عبر المكالمات اليومية ، التي تحولت إلى أسبوعية بعد أن لمس فيها قسوة قلب لا يلين .. إلى أن باتت تتهرب من مكالماته ، رافضة الحديث معه على الإطلاق .

في يوليو ، وقبل أن تلد (جوان) طفلهما ، قررت ترك العمل في (ESL) استعدادًا ليوم ولادة تاريخي ، ألمح الطبيب أنه سيكون في النصف الثاني من أغسطس .

عندها قرر (فوزي) أن يسافر لوالدته ، يأتي بها إلى حيث يعيش حفيدها الجنيني ، لتشهد يوم ولادته ، وتتعرف على حبيبته.

في العشرين من يوليو من عام ١٩٩٠ سافر (فوزي) وغاب..........

الغيـــاب



مـا إن عـادت روحـه لموطنهـا ، بـدأ (فـوزي) رحلـة إرضـاء والدته ، التي لم ترض بسهولة .. تصده مرة ، تنهره مرة أخرى ، وتشتمه في كثير من المرات قبل أن تغيب في طقس بكائي طويل تجذر معها منذ كانت طفلة تجوب سرادق العزاء في عاشوراء البصرة .

كانت كل يوم تحلم بلحظة زواج ابنها البكر من ابنة أختها السمراء الجميلة (منيرة) . لم يكن حلم حفل الزواج مقصورا على قاعة حفلات كبرى ، فرقة (طقاقات) تحيي الحفل حتى ساعات الصباح الأولى ، ونساء مهنئات يحملن الغيرة بين جنباتهن .. والابتسامة المتصنعة على وجوههن.

كـان الحفل بالنسبة لهـا ، إعلانـا عن قدرتها على تربيـة أطفالها بعد وفاة والدهم، ودون مساعدة من أحد .

لحظة الزواج تلك ، كانت لحظة التكريم التي تمنتها (أم فوزي) طويلا . فجاء حزنها ، حنقها ، غضبها ، طويلا جدا ... أحد عشر شهرا ، هي الفترة التي قضاها (فوزي) في أميركا ، بعد أن أنهى إجازته في الكويت دون أن يقنع والدته بالموافقة على زواجه من (جوان) .

ظلت الأم طوال تلك الأشهر ، تصد عن مكالمته ، وتلهث كلما سمعت ابنها الأوسط (عنبر) يكلم أخاه الكبير ..ما أن ينهي عنبر المكالمة حتى تتشبث والدته بتلابيبه ، تسأله بشغف عن أخبار

أخيه .. مؤملة ذاتها بعودة ابنها آسفا ، نادما على زواج لم يكن موفقا .

حلمها ذاك جعلها تخفي خبر زواج (فوزي) عن الجميع ، عدا أبنائها ، بانتظار نهاية سريعة لتلك الهفوة العابرة ، والعودة إلى أحضان الأم الحبيبة .. والسمراء الجميلة (منيرة) .

إلى أن جاءها (فوزي) في ذلك الشهر الصيفي اللاهب .. يزف لها خبر حمل (جوان) وقرب موعد ولادتها . وهو الأمر الذي ظل يخفيه عن أخيه (عنبر) طوال تلك الفترة ، بحثا عن مفاجأة تدفع والدته للرضى عنه .

* * *

كان لقاؤهما الأول كارثيا ... الدموع فرت من المقل ، تناثرت في كل مكان ، هي تجهش عناد طفلها الكبير ، ورأسها غارق في صدره ، وهو يبكي قسوة والدته التي حرمته صوتها ما يقارب السنة .

عاتب كلاهما الآخر .. صرخت فيه ، أنبته ... احتضنته مرة أخرى .

شتمت حبيبته (جوان) .. وعادت لتشم رائحة طفلها الكبير .

أخيرا .. بعد أن هدأت .. قذف ذلك الخبر في أحضانها :

" سيولد طفلي الأول بعد أيام بإذن الله"

كانت الفرحة أكبر من ألمها ... فبكت حرقة الغربة عن حفيدها الجنيني .

عندها أسرّ (فوزي) لوالدته رغبته في أخذها معه لحضور ساعة الولادة . رجاها طويلا .. إلى أن أومأت برأسها بتثاقل ، وقلبها ينبض فرحًا .

في موسم صيفي مجنون ، استطاع (فوزي) أن يحصل على حجز تذكرة سفر له ولوالدته ... في الثالث من أغسطس .

عشية الأول من أغسطس جهزت (أم فوزي) الحقائب . وكجميع كبار السن استعدت قبل السفر بيومين .. تنتظر موعد الإقلاع .

عصر الأول من أغسطس .. هاتف (فوزي) (جوانه) ، في غمرة نومها الهانئ ... أرسل لها قبلته اليومية .. أغمض عينيه على حلم احتضان وليده الجديد.

ونـــــام .

* * *

صباح الثاني من أغسطس ... أوحت الطبيعة بقدوم كارثة .

كانت جميع بوادر ذلك اليوم مزعجة ، مؤلمة ... تنذر بشؤم يلف البلاد بأسرها .

قبل سفر (فوزي) ووالدته بيوم واحد فقط . قرر صدام حسين اغتيال كيان يدثر بلاده وجارتها بدثار الحب ، الأخوة والنسب .

صدعت الأرض ، وغابت شمس الصباح لسبعة أشهر .. ظل فيها العالم كله يستقبل أخبار الدولة الصغيرة التي اغتصبها وحش أمدته وحوش كبرى بالأنياب والمخالب .

ذلك الوحش الذي شكلته تلك الوحوش (الشقراء) ، أتقن الدور .. حد الاندماج . وبعد أن كان مرتبا له أن ينتهي من فعلته الكارثية في أيام ، صار يصعب السيطرة عليه ...لتمتد الأيام لشهور صعبة ، قاتلة .

الوحش الذي سكن الجسد الصدامي .. كان أكثر عنجهية من أن يتراجع . والوحوش الشقراء التي تورطت في تربيته ، باتت تعجز عن ترويضه.

استمرأ الوحش الصدامي اغتصاب أرض الجار ... فكان لابد للوحوش (الشقراء) أن تثور ، تفترس وحشها المدلل ، وتنقذ البلاد الصغيرة التي راحت ضحية اتفاقية نجسة ، يقودها كلاب خططت لعقود عديدة للاستيلاء على خيرات الضحية ، وبفضل الوحش الصدامي ، صار للكلاب عدة ضحايا .. مغلفة بالعديد من الخيرات .

مرت الأشهر السبعة بصعوبة .. عانى منها الكويتيون حد القتل ، والتعذيب .

وعانى منها العراقيون حد الجوع ، والقهر .

قاوم الكويتيون .. فقتل وأسر منهم الكثير . وقاوم العراقيون.. فأبيد جميع المعترضون وعلقت جثثهم في الأسواق العامة ، عبرة للآخرين .

وظل العراقيون الذين يعيشون في الكويت ، معلقون بين عشق أرض ينامون في حضنها ، وبات يخشاهم شعبها .. وأرض أخرى يفخرون بانتمائهم لها ، لكنهم يخشون طاغيتها .

فاضت الطبيعة ألما ، وأفرزت حقدا تجذر في القلوب . ولم يعد بين الجارين حب ، أخوة ، أو نسب .

كانت تلك الأيام ، أصعب أيام (فوزي) ، أكثرها ألما .

راح الكثير من أصدقائه المخلصين .. أسر بعضهم وقتل منهم إثنان .

بكاهم كثيرا .. لكنه بكى الأرض المغتصبة أكثر .

وعلى الضفة الأخرى يقف وجه والدته الحبيبة .. بوشمها الأخضر الذي حاولت التخلص منه في أولى سنوات زواجها بسبب تعليقات الجارات ، فاستخدمت مادة قلوية حارقة ، خلفت ندُبًا عميقة ...ذكرتها بعمق جذورها العراقية.

يرقب (فوزي) والدته وهي تنحب يوميا مأساتها المضاعفة... أهلها يغزون أهلها ...عراقها يغتصب كويتها ...!

و(فوزي) .. يعجز عن استيعاب ذلك الفيلم (العبثي) الذي ينتظر نهايته ، ونهاية حزب (البعث) معه.

منذ اللحظة الأولى لاقتحام الكويت ، انهالت اتصالات أخواله العراقيين..يؤكدون عشقهم له وللكويت التي تعرفوا فيها على كل شيء جميل . بكوا بحرقة حين كلموه عبر الهاتف في أولى أيام الغزو المرير :

" حبيبي فوزي يمه ، لا تكرهنا فدوة ، ما إلنا ذنب يمه .. لعنة على اللي كان السبب يمه "

لم يسمع باقي كلمات جدته التي ضاعت في نشيجها المتواصل . وهكذا جاء صوت خاله :

" بابا فوزي ، ما عساي أن أقول .. نكس روسنا الله ينكس راسه بإذن واحد أحد "

يكلمهم (فوزي) وكيانه الكويتي يتساقط أمامه على أرصفة الشوارع المحطمة ، وفي أروقة البيوت والوزارات المهجورة ..

(فوزي) الذي يذوب عشقا في أرض أعطته ولم تأخذ منه شيئا بعد . وينتظر اليوم الذي يعطيها فيه .. ظل طوال تلك الأيام ، يتمنى الموت على أن يشهد دمار بيته ، شارعه ، مدينته ..(ديرته)

على يد جار طالما عشق تاريخه ، لهجته ، أغانيه، وأشعاره المعجونة بتراجيديا لم يقو اليونان على صنع مثلها .

وظلت والدته تذرف الدموع بعين تبكي بلادها القريبة .. ورجالها المخلصين. والعين الأخرى تبكي بلادها البعيدة ، ورجالها المعذبين .

تتلقى المكالمات اليومية من أهلها في العراق ، يبلغونها بموت أحدهم .. ويستجيبون لأسئلة (فوزي) رغبة في إنقاذ أحدهم.

كان (فوزي) يبلغ خاله (حسن) بأسماء أصدقاءه الذين اختفوا فجأة . يغيب الخال لأيام .. يتوسل فيها أصدقاء الطفولة ، وآخرين تسكن ذكرى الكويت أفئدتهم ، لهم فيها أهل وأحبة .

كان معظم أولئك الجنود يشعر بالخجل من الفعل الصدامي الدنئ ، أيقنوا أن وسيلتهم الوحيدة للمساعدة ، تكمن في البحث عن أصحاب تلك الأسماء الكويتية، وبث الطمأنينة في قلوب محبيهم .

وكان (فوزي) أول المحبين .

باتت تلك المهمة التي يقوم بها (فوزي) في الوصل بين خاله وعائلات المفقودين من الأصدقاء والجيران، من أجمل وأصدق الأدوار التي أداها في حياته منذ أن عَشِقَ التمثيل .

وباتت مهمة الخال في الحصول على تلك المعلومات، من أصعب المهام وأكثرها خطورة ، في ظل انتشار الدمى الجاسوسية التي أتقنت المخابرات العراقية اللعب بخيوطها .

* * *

للمرة الأولى يدرك (فوزي) أن الوطن قد يشكل هاجسا يشغل الانسان عن التفكير بطفله الوليد .

لم يتذكر ولادة طفله إلا في الثامن والعشرين من أغسطس ، عندها بدأ محاولاته في محادثة (جوان) والاطمئنان عليها ، لكنه لم يستطع .

ظل الوليد مجهولا ، ومصير البلاد مجهولا .

المصير المجهول شكل هاجسا مؤرقا لـ (جوان) أيضا ، يُبكيها في اليوم الواحد مرارا ، كلما جاءت نشرة الأخبار على ذكر الكويت . وكثيرا ما تفعل .

مع عائلتها الصغيرة فقط .. ودون (فوزي) ، استقبلت (جوان) أجمل طفل أسود تراه عيناها .

قبل موعد الولادة بأيام ، في العاشر من أغسطس ، جئت أنا... جمال .

وسيمٌ بلوني الداكن ...دون أن أكون أقل سوادًا !

منذ أن حملت بي (جوان) ، اتفقت و(فوزي) أن (جَمال) هو الاسم المناسب لكليهما . بالنسبة لفوزي ، اسم عربي يحمل أسمى الصفات ، وبالنسبة لجوان ، اسم اميركي يوثق علاقتها بانتمائها الأسود ...مع تحريف بسيط في النطق ، بكسر الجيم ، وإضافة ياء قبل اللام ... أصبح (جِمايل).

فأصبحت في البيت (جَمال) ، وخارجه (جِمايل) .

طفل سعيد .. لا أدرك من محيطي سوى حاجاتي البيولوجية ، تبكيني أحيانا ، وتضحكني أحيانا أخرى .

مرت الشهور السبعة بألم .. لم تقو (جوان) على الصمود .. ترددت كثيرا على المشفى . فقدت الكثير من وزنها .. وجزءًا كبيرًا من روحها .

كل يوم أكبر فيه ... يزداد قلق (جوان) .. وتتضاعف كلمات أخوتها المطمئنة.

ولا ينسى الواعظ في الكنيسة أن يدعو لـ (فوزي) رأفة بحال (جوان) ، فتاته المؤمنة.

إلى أن أشرقت شمس الكويت مرة أخرى .. بعد أشهر من الظلام .

عادت الفرحة لتسكن الشوارع ، البيوت ، والقلوب .
والجميع يترقب ذلك الوحش الذي بات يقتات يوميًا على أرواح

عراقية لا ذنب لها سوى أنها ولدت على أرض تسبح فوق بحيرة من الذهب الأسود .

في السادس من مايو ١٩٩١ ، اضطر فوزي لوداع والدته ، تاركا إياها غارقة في حزنها ، وعجزها عن السفر لرؤية حفيدها الصغير ، بعد تدهور حالتها الصحية طوال تلك الفترة .

عاد فوزي إلى كيان هجره عشرة أشهر عبر رحلة خرافية تجاوز فيها الحدود السعودية ، وطار من عاصمتها إلى حيث الأحبة .

أن أكون نظيفًا !

حين تركت والدتي العمل ، لم يدر في خلدها أنها ستحتاج لراتبها يوما ، كل ما أرادته أن تعتني بجسد أسكنه أنا . على أن تعود إلى الدراسة بعد الولادة ، في خطوة حثها عليها والدي كثيرًا، حتى لا تظل حياتها أسيرة العمل الإداري الراكد. وللاستفادة من العديد من المميزات التي تكتسبها زوجة طالب البعثة الكويتي .

لكن في ظل الغياب القسري لوالدي ، شقيتْ والدتي في سداد مستحقات شقتها ، فقررت أن تعيش ورضيعها مع والديها في الشهر الثاني من غزو الكويت ، إلى أن عاد والدي ، لنبدأ حزم ما تبقى من حياتنا السابقة ، استعدادا للانتقال إلى سكن جديد رغم احتضان عائلة والدتي لنا ورغبتهم ببقائنا صحبتهم .

كان القرار صعبًا ، أكبر من مجرد الاستقلال في بيت يبعد عدة أميال .

قرر (فوزي) و (جوان) الانتقال إلى مدينة (كاربونديل) في جنوب (إلينوي) بعد محاولات حثيثة من قبل خالتي (نتاشا) التي تقطن وحيدة في مدينة وتدرس سنتها الأخيرة في المدينة المجاورة .

بحماس كبير سعت (نتاشا) لذلك الانتقال ليبدأ والدي رحلة الماجستير التي لم تتوفر له في برنامج الدراسات العليا في جامعة شيكاغو حيث درس اللغة قبل غيابه الطويل .

أثناء إقامتها في (شيكاغو) ، أيقن (فوزي) أن (جوان) أسيرة عرقها ، ولن تجرؤ على تجاوزه في ظل انغلاقها التام على لونها الذي تعشقه بقدر رغبتها التحايل عليه .

لذا ، منذ قرار الانتقال أراد والدي أن نسكن (ماريان) رغم أن دراسته في (كاربونديل) ، على عكس (نتاشا) ...رغبة منه في دمج والدتي في مجتمع البيض الذي تخشاه .

في تلك المدينة الصغيرة الهادئة لاحظ كلاهما الحميمية التي تربط جميع السكان ، فتصور والدي إمكانية الاندماج الذي لن يتحقق بسهولة في مدينة (كاربونديل) الجامعية ، التي تعج بأجناس وألوان لا تستقر في مكان واحد أكثر من عدة أشهر .

على عكس ما توقع والدي ، كانت إقامتنا في (ماريان) صعبة، مثلما توقع جدي (ديفيد) الذي صارح والدي بتجربته ، ونصحه ألا يعيد الكرّة .

طبيعة بشرية غبية .. أن نكرر مآسي عاشها غيرنا . وهكذا كانت طبيعة (فوزي) .. أصر على خوض تجربة الإندماج رغم النصائح .

كان متأثرا بحالة التماسك التي ميزت المجتمع الكويتي أثناء تلك الشهور المؤلمة . فرغم ما خلفته الأزمة الكويتية من شجن استهلك روحه ، إلا أنه جاء إلى أميركا محملا بأحلام يقظة مدفوعة بحالة الحب التي جمعت الكويتيين بعيدًا عن جميع الفروق

الطبقية ، والعرقية التي نخرت في جسد ذلك المجتمع في مرحلة ما.

أشعرته تلك الشهور السبعة أنه لا يختلف عن أي منهم . لونه لم يكن حائلا بينه وبين عشقه لبلاده .. وهكذا كانت بلاده تتشبث به دون أن يردعها لونه .

غادر (فوزي) الكويت في فورة الفرح ، قبل أن يكتشف أن تلك الروابط التي جمعت أبناء بلده أيام عزائهم الكارثي ، بدأت تتبخر .... بمجرد أن اطمأنوا على انتمائهم الكبير ، تذكروا انتماءاتهم الصغيرة .. الصغيرة جدًا !

* * *

في (ماريان) بقينا خارج الحميمية لأشهر عديدة .. في مجتمع أبيض ، يعاملنا بتحفظ ، ربما لحداثة المعرفة ، وربما للوننا ..وهذا ما آمنت به (جوان) .

لم يكن يزورنا سوى خالتي (نتاشا) التي لم يبق لها الكثير على الانتهاء من دراستها والعودة إلى (شيكاغو) .

اضطرت (نتاشا) أن تواجه والديّ :

" لن تصبحا منهم وإن اخترقتما كيانهم ".

عندها جاء قرار الانتقال لـ (كاربونديل) ، على ألا نقطن حي السود فيها ... الذي لابد موجود .

رغم أنها تعتبر مدينة حية قياسًا بـ (ماريان) ، إلا أنها مدينة ميتة قياسًا بـ (شيكاغو) ، لا يعرف أبناؤها مكانا للترفيه عدا (السوبر ماركت) الضخم الـ (وول مارت) ، ومول آخر جديد عدد موظفيه أضعاف زبائنه .

على جانب الطريق السريع الذي يربط المدينتين ، وقعت عينا (جوان) و(فوزي) على مطعم يشغل مساحة هائلة . ما إن وطنا الـ (جولدن كورال) حتى عرفا أين يختبئ معظم سكان (كاربونديل) الأصليون .

لمطعم (بندروزا) حظوة أخرى أيضا بالنسبة لـ (الكاربونديليين) .. على عكس طلبة الجامعة المرتبطون بفرع (الماكدونالدز) الذي يتوسط الـ (student center) في قلب المباني الجامعية ، ذاته الفرع الذي تعمل فيه (نتاشا) مذ وطنت قدماها هذه المدينة .

كمعظم أبناء أميركا ، كان (الكاربونديليون) ، شرهون ، وجدوا ضالتهم في مطاعم تمتد طاولاتها الضخمة بعشرات الأصناف مقابل ستة دولارات للشخص الواحد فقط .

معظم سكان هذه المدينة يعانون السمنة المفرطة ، لا يستخدمون أقدامهم في التنقل كأبناء (شيكاغو) ، ولا يعرفون من

وسائل النقل إلا سياراتهم الخاصة ، والباصات الجامعية لساكني الحرم الجامعي .

أثناء الساعات الأولى التي تعرف فيها (فوزي) على هذه المدينة ، تذكر أبناء (الديرة) ، أحبته الذين تنهش السمنة أبدانهم الغضة ، وأعمارهم الندية .. بفعل السيارات الفارهة ، والوجبات السريعة ، وأجساد تتكاسل عن جلب كوب الماء! وتمنى ألا يتحول و(جوانه) إلى صورة عن تلك النماذج المثيرة للألم .

* * *

على غير ما كانت تخشى (جوان) ، وجدت في (كاربونديل) تآلفا لونيًا وعرقيًا جميلا كون أكثر رواد المدينة من طلبة جامعة (جنوب إلينوي) القادمين من كل بلاد العالم .

إزداد تآلفها لحظة بدئها ببرنامج الماجستير في إدارة الأعمال ، بأمان يراودها للمرة الأولى ، لأنها لن تضطر لسداد مستحقات الدراسة التي تكفلت بها بعثة زوجها كما تفعل وزارات الكويت ، في دفع زوجة المبتعث للعلم ، ودفع زوج المبتعثة للجهل، كما يردد (فوزي) :

" ترى تلك الوزارات ، أن واجبات المواطنة فرضا على الشعب بجنسيه..بينما معظم امتيازاتها حكرًا على الرجال فقط ..!"

لم تكن والدتي (جوان) وحدها آمنة ، سعيدة ، ومتآلفة ، أنا أيضًا ، عشت حالة شبيهة لحالتها ، في طفولتي المبكرة ، لم ألحظ لوني في محيط أسود فقط ، يسكنه والديّ ، خالتي وصديقها (بيرك) ومعارفهما ؛ (توم) وزوجته (سمانثا) وصديقتها (إيليشا) .

لم تهيئ لي الظروف غير الالتقاء بأولئك المتفاوتين في درجة سوادهم .

خشية تعرضي لأجواء (كاربونديل) الحارة جدا ، لا تخرجني والدتي من البيت إلا في المساء ، حيث الجولة اليومية في أرجاء السكن الجامعي فقط ، حماية لجسدي الصغير الذي لم يتلق معظم لقاحاته بعد .

في ظل حي (الساوثرن هيلز) ، الذي لا يعيش فيه الكثير من الأطفال ، أتسيد وحدي الألعاب التي تتوسط المنازل، وتصحبني إليها أمي قبل حلول موعد نومي .

استمرت تلك المرحلة الروتينية في حياتي إلى أن جاء ذلك اليوم ، حين حملتني والدتي إلى غرفة الغسيل على غير عادتها ، نظرًا لانشغال والدي المفاجئ. هناك تعرفت والدتي على جارتنا (كاثي) ... عندها لاحظتُ أنها لا تشبه أي ممن ألتقيهم يوميًا في بيتنا الصغير .

كانت (كاثي) تشبه أغطية السرير البيضاء .. لون الحائط .. أطباق الطعام .

كنت أخشاها كثيرًا ، أتخيل جسدها شرشفا متحركـًا يعلوه طبق أملس...أتخيلها تخرج من الحائط بلا رأس ، تدور حولي في غرفتي الصغيرة.

عدا تجربتي مع (كاثي) ، لم أتلمس اللون الآخر جيدًا إلا بعد أن تلقيت معظم لقاحاتي التي خولتني للتعامل مع الحياة في ظل تحسن الأجواء (الكاربونديلية)، باتت والدتي تصطحبني أينما ذهبت، فأصبحت اكتشافاتي سريعة بقدر سرعة والدتي في إلتقاط حاجاتها الاستهلاكية من على أرفف الـ (وول مارت)... وأنا محشور في العربة الصغيرة أحاول فرز الوجوه الجديدة التي لا تتحلى بلون أسود ، شفاه مكتنزة ، وشعر أكرت.

وهكذا في الشارع ، أتذكر أننا كلما توقفنا عند إحدى الاشارات أعتدل في جلستي المتراخية بفعل قيد كرسي الأطفال ، أحاول التلصص على أفخاذٍ بيضاء لم أعتد لمعانها من قبل .

بعد أن كان لا يحتويني سوى لون أمي وأبي ، بت أخوض تجارب لونية جديدة ، أبرزها تلك التي تعرفت عليها في الحضانة .

في يومي الأول لمحت اختلافي عن باقي الأطفال...كنت أتسلل للمس شعورهم الذهبية وهم يغطون في قيلولتهم النهارية .. وجميعنا كنا نتحين الفرص لنبحث في عمق ثقبين صغيرين تطل منهما مقل سوداء، تزين وجه زميلنا الياباني .

هكذا يفعل الجميع معي أيضا ، يتسمرون أمام ملامحي التي تحثهم على لمسها والعبث فيها ...حالات الذهول التي تصيب جميع الأطراف ، جاءت لاحقة لحالات الهلع في أيامنا الأولى في الحضانة... كنت أرى في وجوههم تلك الأطباق البيضاء الفارغة المخيفة، وهم كانوا يرون فيّ سببًا مخيفا أيضًا...سبب لم أستطع كشفه رغم الساعات الطوال التي أقضيها أمام المرآة.

تقلصت لحظات الذهول مع إلتحاقي بمرحلة رياض الأطفال ، لتحل محلها تساؤلات عجزت عن الإجابة عنها.

سألني أحد تلك الأطباق البيضاء :

" لماذا لا تستحم ؟"

لم يجدِ معه تأكيدي على استحمامي اليومي ، راح يكرر سؤاله لحين تأنيب (مس ديبرا) له .

صمت الطبق المزعج عن تكرار سؤاله ، لكنه لم يستمع إلى إجابة مني أو من (مس ديبرا) التي وجدت في إسكاته حلا جيدًا لساعات الالحاح تلك ..لكنها بالنسبة لي لم تكن مرضية على الاطلاق .

عدت إلى المنزل .. اتجهت للحمام .. بدأت نزع ثيابي وعقلي يكرر " لابد أن أصبح نظيفا" ...قضيت ثلاث ساعات أستحم .. وكلما نظرت في المرآة عرفت أنني أحتاج لأيام عديدة لأصبح نظيفـًا !

فوجئت والدتي بسر تلك الساعات الطوال ...أجلستني على ركبتيها، أسرت لي بكارثة لفظتها بكل هدوء :

- لن يتغير شيء يا عزيزي .
- سأظل في الماء إلى أن أصبح نظيفـًا مثل أصدقائي !
- لن تصبح نظيفـًا مثلهم ..لأنك نظيف مثلي .

ولم أجرؤ أن أقول لها :

"أرغب أن أكون نظيفًا مثلهم ، لا مثلك"

* * *

لمست والدتي سبب هواجسي ، أننا في حي كل سكانه من البيض..وإن تعددت أعراقهم . صرحت لي بأن معظم مشاكلي ستنتهي بمجرد أن يفرغ والدي من الدراسة ، وننتقل إلى حي آخر.

ولم تشرح لي ما هي مشاكلي !

حين زرت حي (إيفير غرين) المخصص للعائلات الأكثر عددا ، تمنيت أن أسكنه بعد أن وجدته مليء بالأطفال المفعمين بالحيوية ، بيض وملونين .

عرفت بعد ذلك أن معظمهم من الأطفال العرب ، الباكستانيين، والأتراك .. فوضاهم تذكرني بفوضانا... تلك

الفوضى التي لا يقوى الطفل الأسود على هجرها ، فهو لا يتقن التشبه بالأموات ...يعشق الحركة ، ولا تعرف مؤخرته طعم الحياة وهي ملتصقة بمقعد ...يعشق المرح ، ويعجز عن فهم الوجوه (الكابوكية) الجامدة!

أوضحت والدتي :

- لكل منا فوضاه الخاصة .. حتى جارتنا اليابانية الهادئة ، سليلة بلاد الكابوكي ، لها فوضى قد نصعق حين نتعرف عليها .

ظللت أتوق لفوضى أولئك الأطفال في ذلك الحي الحيوي ، وأحلم بالإنتقال إليه ، إلى أن تأكدت والدتي أنه لا يمكن ذلك ، لعائلة تملك طفلا واحدًا فقط .

فبقيت في (الساوثرن هيلز) .... أسود ووحيد .

* * *

بعد أن إلتحقت والدتي بالدراسة ، وفرت لها الجامعة أصدقاء مقربين من كل الأجناس ، بعضهم من رواد تخصص (إدارة الأعمال) .. تقضي ساعات الدراسة بجانب زميلتها ابنة ألاباما ، الشقراء (جوي) التي باتت تشاركها ساعة الغداء برفقة الفلسطينية (تغريد) ، بعد أن تنهي هذه الأخيرة إعطاء درس اللغويات لغير الناطقين بالانجليزية .

لم يعد مقلقا بالنسبة لـ (جوان) اختلاف الأجناس من حولها... لم يعد مهما بالنسبة لملكة مثلها أن يكون لونها داكنا ، أو شعرها مجعدًا .. فهي ملكة (فوزي) الذي لا يكف عن تدليلها .. كان يقضي بضع دقائق يوميًا صحبة قاموس اللغة ، ليخرج بترجمة انجليزية جيدة لبيت شعر أعجبه في إحدى الدواوين العديدة التي يصطحبها معه أينما حل .

يمثل الشعر بالنسبة لـ (فوزي) وسيلته الأولى في التعبير . كثيرا ما يشعر بحاجة شديدة لأبيات (بدر شاكر السياب) ليصف لحبيبته كم يستلذ العيش معها ... حين يلمس في حضنها سكينة الوطن يستعين بأبيات (محمود درويش) ، حين تنكأ جراحه التي لا يتقن شفاءها إلا هي ، لا يجد غير أبيات (قاسم حداد) ... وفي لحظات الاشتهاء يلجأ لـ (نزار قباني) وإن كان لا يجد فيه ذاته.

يكتب بيت الشعر ، يضعه في صندوق البريد لتستلمه (جوانه) في اليوم التالي...وحين يكون على عجلة لا تؤهله للترجمة ، يستعين بإحدى دواوين (إليوت) ليقتص منها بيتا يذيله بملاحظة :

" حبيبتي تأكدي أنه لا يعبر بدقة عما أشعر به تجاهك..أحبك حبًا عربيًا أصيلا. حب لا يعرفه أشقر بارد ..لو أنك تستطيعين قراءة ابن عرقنا (عنترة بن شداد) بلغته ، لعرفت كم أحبك "

أرادت (جوان) تعلم اللغة العربية.

تمنت أن تقرأ (ابن شداد) الذي أدهشها فخره بسواده عبر أبيات لا تموت ، يحفظها (فوزي) ويسعد بترديدها ورأسه في حضنها :

" لئن أك أسوداً ، فالمسك لوني ..وما لسواد جلدي من دواء ولكن تبعد الفحشاءعنـــــي ..كبعد الأرض عن جو السمـــــــــاء"

يترجم لها ما يستطيع ... ويضيف :

" يعيبون لوني بالســواد جهالة..ولولا سواد الليل ما طلع الفجر وإن كان لوني أسود فخصائلي..بياض ومن كفي يُستنزل القطــر"

استعانت (جوان) بـ (تغريد) حتى لا تشغل (فوزي) الغارق بالدراسة ، والحب.

لم تكتف (تغريد) بأبجديات اللغة ، لحظة سماعها رغبة (جوان) ، قررت أن تتحدث معها باللغة العربية الفصحى .

كان تجاوب (جوان) سريعًا جدًا .. بعد شهر من بدء دروس اللغة العربية ، فاجأت (فوزي) في يوم عيد ميلاده ، بأكثر جملة استعدت لها :

- كل عام وأنت بخير حبيبي .

قالتها (جوان) بلغة عربية سليمة ، دون تلكؤ أو ارتباك . بل أنها فاجأته بـ (جمال) يمد يده بآلة الحلاقة الجديدة وهو يتمتم بعربية ركيكة :

- كل عام وأنت بخير بابا .

بتلك الكلمات أيقن (فوزي) أن طفله العربي / المسلم لا يعرف عن انتمائه سوى (كل عام وأنت بخير بابا)..كما أيقن أنه امام إمرأة اختارت طريقها دون تأثير منه ، فقرر أن يشارك (تغريد) مسؤولية تدريس (جوان) ، وأن يفتح منافذ جديدة في حياة (جمال) ابن الرابعة .

* * *

في مدينتنا مسجد صغير ، يجمع كل مسلمي المدينة في أوقات الصلاة..أرتاده مع والدي ووالدتي التي تضطر للبس الحجاب قبل الولوج لقسم النساء.

لم يكن يعني لي ذلك المكان أكثر من مسابقة لإستعراض أكبر عدد من الأجناس المختلفة في العالم ...وأنه المكان الذي يكون فيه عصام الفلسطيني وعبدالله السعودي أفضلنا لأنهما يحفظا أكبر قدر من القرآن ... عبدالله يشبهني كثيرًا ، لونه كلوني ..لم يحتج لأن يكون أشقرًا حتى يصبح مميزًا .

كان (فوزي) يفضل الذهاب إلى المسجد مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع ، يلتقي ببعض المثقفين من رواد المسجد ، بعيدًا عن النظرة العنصرية التي طالت مجموعة من الباكستانيين، بسبب وجوههم المكسوة باللحى الكثة . وصغيراتهم المدثرات بالمُعتقد .

تلك النظرة العنصرية كانت منتشرة في (كاربونديل) ، لدى قلة من كبار السن فقط ، الذين يواجهون بالتأنيب من قبل الشباب الأميركي المؤمن بحرية الاختيار .

كثيرا ما أفضى (فوزي) بتعاطفه تجاه جنسيات معينة ، تستدر عطف الجامعات للحصول على منح دراسية ، وحين تحط على أرض الأحلام ، تفاجأ بمواقف مسبقة تجاهها دون ذنب اقترفته :

" تذكرين النظرة المسبقة التي كنت تخشينها في (شيكاغو) رغم أنها مدينة تعج بكل الأجناس.. هذا الباكستاني المسلم يعاني ضعفها بسبب هيئته ... في دول الإسلام هو فقير ، قد يلجأ للجريمة، وفي دول (اللا إسلام) ، هو مسلم ، وفقير، قد يلجأ للجريمة أيضًا".

لا تذهب والدتي للمسجد إلا مرة واحدة في الأسبوع ، لتجتمع بالنساء وتتعرف عليهن .. حين أرادت الانتظام بدروس دينية لتتعرف على الإسلام ، نصحها والدي بتعلم الدين من مصادره المترجمة ، وليس عبر وسيط :

- وُجد المعلم لتوضيح ما يعجز قارئ القرآن عن فهمه ، وبوجود كل هذا الكم من التفاسير القرآنية المترجمة ، ما حاجتك لمعلم لا تعرفين مستواه الفكري ، وبيئته ، ولن تدركي حجم التغييب الذي ستصابين به بمعيته ...

أيدته (تغريد) :

- "هذه الأندونيسية التي ستعلمك تفسير القرآن ، منتقبة ، في حين أنني لست كذلك .. وهكذا ستجدين جميع النساء أمام بيت الله بلا نقاب ..تأكدي أنها ستُحمّل وعيك الإسلامي الجديد تناقضات مهلكة ، سَتَزجُ بك في عالم آخر ، عالم يقوده بشر مثلنا، لكنهم يملكون أفكارًا لا تناسبنا ، في حين أن الدين الإسلامي الحقيقي قاده انسان عظيم لن نكون مثله، يملك أفكارًا تناسب الجميع ".

ألغت والدتي فكرة الدروس الدينية ، وبدأت بقراءات ذاتية لم تحولها إلى مسلمة ، بل إلى إمرأة مسيحية تعرف الإسلام ، وتحبه فقط .

كانت (أم فهد) ، إحدى جارات (تغريد) ، تسأل أمي كلما إلتقتها :

" ألم يهدك الله بعد ؟ "

فترد أمي بابتسامة محبة : الله هداني مذ كنت نطفة أسكن رحم والدتي التي تعشق الرب وتجله !

ظلت (أم فهد) تكرر السؤال كلما إلتقتها ، وتخلت أمي عن تكرار الإجابة مكتفية بابتسامة وصفتها في مذكراتها :

" ابتسامة طالب كوري ، يعبئ استمارات مكتظة بأسئلة معقدة ، لا يدرك منها سوى أنها تعني قبوله في قسم تعليم اللغة

الإنجليزية للأجانب ! .. فأولئك الآسيويين يحملون ابتسامات طفولية توحي بجهلهم .. لنفاجأ بعد عام واحد فقط أنهم على قائمة الشرف المنصوبة على بوابة الجامعة ! "

الملائكة لا تموت

لم تمهلنا الحياة (الكاربونديلية) الرائعة وقتا أطول نقضيه مع كائن ملائكي اسمه (فوزي)... لا يكتفي بالاعتناء بأميرته ، ومليكه الصغير .. بل يتقن الاعتناء بالكائنات الأخرى أيضًا ، حيث اعتاد ترك وعاء كبير مليء بالماء وراء شباك غرفة النوم المطل على الغابة ، منذ أن شاهد الغزلان تجتمع في ذلك المكان يوميًا .

أخبرته أمي أن الغابة فيها بحيرة صغيرة وبعض المستنقعات بالتأكيد ، لكن والدي يعشق الحيوانات ويشعر أن لوجودها بالقرب من شباك غرفته رسالة ما .

ذلك (الملاك) .. لم يعد (مُلكنا) .

بغيابه تحولت المدينة إلى أرض قاحلة ، جافة ، بلا حياة ....
كان عائدًا من المسجد في إحدى الليالي الرمضانية ، بعد صلوات عديدة يقول والدي إن تأديتها في المسجد له أثر رائع في نفسه .

صادفه غزال يتنقل في الشارع الرئيسي المؤدي لمساكن (ساوثرن هيلز) التي نقطنها .

رجف قلب والدي ، وكما عُرف عنه ، فضل أن ينحرف عن الطريق على أن يقتل ذلك الغزال الصغير .

بعد حادث الغزال ذاك ، عاش والدي تحت رحمة أجهزة الانعاش ليومين اثنين فقط ..أفاق بعدها لساعات قليلة ، لم يقو على الكلام ، انشغل بكتابة ما استطاع من جمل توحي بشيء من

وصية خلفها عند أحدهم ، وطفل يريده أن يظل عربيًا ، مسلمًا ، كويتيًا .

ألحت والدتي بنبرة عتب تسأله سبب انحرافه عن جادة طريق يحفظه جيدًا ، فكتب :

"غزال صغير" .

وأضاف :

"أحبكما" .

بتلك الحروف التي خطتها يده المرتعشة ، انتهت حياته .

بعد أن حول (فوزي) تجمع الغزلان ذاك إلى ملاذ للارتواء .. حولت الغزلان حياتنا إلى جفاف لا يُرتوى .

* * *

أعلن الطبيب ساعة وفاة (فوزي) ، غادر الغرفة ملتحفًا باللون الأبيض ، متمتمًا باعتذار بدا نوعا من المواساة المعتادة ، لشابة فقدت زوجها للتو .

لم تحتمل (جوان) فراقه .. ظلت متمسكة بجثته الممدة على سرير غرفة الانعاش ..نادته مرارًا .. رجته ألا يتركها .. تحسست

صدره العاري ، مصطدمة بأسلاك حملت معها الأمل في انعاشه تلك الساعات ... تشممت بقايا عرقه .. همست لقلبه أن "عد من أجل حبيبتك ".. فكرت أن تأمره "من أجل ملكتك" ..

لكنه أبى أن يجيب .

تحلقت حولها ممرضات ملائكيات ، بوجوه صباحية تتسق وملابسهن البيضاء، مثقلات بعيون أنهكها السهر ، ونظرات اعتادت المشهد ذاته...رمقتهن (جوان) وحمدت الله أنها ليست بيضاء بملامح الجفاء تلك ، تصورت للحظة لو أنها محاطة بممرضات من عرقها ، لتحول المكان لمؤازرة حميمية ... جلسة تطهيرية .

بتعليمات من الطبيب ، حاولت الممرضات سحبها إلى خارج الغرفة ، استسلمت لهن .. وما إن اقتربت من الباب حتى انتفضت مرة أخرى ، عادت لتجدد محاولاتها في إنعاشه ، أخذت تصرخ في الأسلاك المتشبثة ببقايا جسده .. استفزها صوت الصفير المعبر عن توقف نبضات القلب ، تراجع الجميع ، قرروا ضمنيًا منحها دقائقها الأخيرة.

وقررت أن تنسى الجميع في حضرة الحبيب ، حتى طفلها الصغير (أنا)، تمددت (جوان) بجانب بقايا حبيبها...همست له بسرها الكبير :

" حبيبــي ... هـل تعـرف بمــاذا تمتمــت لــذاتي ســاعة رأيتك...(عربي ومسلم..إلهي ما أتعسه من تخطيط) ... ترددت في الافصاح عن سرّي طوال سنواتنا الجميلة معا ..خجلت أن أبدو عنصرية في عينيك .. أعلم أن عينيك نقية .. لا تتفنن في سبر النوايا.. لكني أعلم أيضا مدى عنصريتي حينها " .

حوطتــه بـذراعها اليسـرى ، حاشـرة اليمنـى تحـت رقبتـه ، وأكملت بوحها :

"أوقن أنك راحل بلا عودة .. لكن أرجوك .. لا ترحل دون أن تغفر لـي عنصريتي.. عن نفسي غفرت لـك كـل خطايـاك .. بـدءًا بخطيئـة اقتحامـك حيـاتي .. وانتهـاء بخطيئـة رحيلـك المُفـاجئ .. وغفرت لك خطيئتك الكبرى في حملي على النظر للمرآة كل يوم بعين تُعجب بما ترى .. جعلتني أصدق أني أميرة .. ملكـة .... وأنت تعرف أن لا ملكة دون ملك ، ولا أميرة دون أمير .. ولا جميلـة دون وحش كاسر يحرسها أينما تحل.

لا أظنني قـادرة علـى تحمـل فكـرة رحيـل أميـري ، مليكـي ، وحارسي ... ولا أظنني قادرة على تحمل غفران خطيئتك الكبرى حين قررتَ الاستغناء عن وجودك بيننا من أجل غزال شارد ، لا تنتظره أميرته الجميلة ، حاملة ملاكها الصغير بين ذراعيها .

لكني سأحاول أن أغفر .. فهل تغفر أنت ..؟ "

* * *

بقيت في المدرسة ، بانتظار والدتي ، لم تنقذني سوى (تغريد) ، بعد اتصال من الإدارة تسألها عمن يمكنه الاعتناء بطفل ينتظر المجهول ليقله للمنزل ، وملفه لا يحمل سوى اسم (تغريد) بجانب والديه .

في حين قضت (جوان) تلك الليلة تنتحب في أحضان (تغريد). كنت أنا ممددا بجانب فلسطينيين شُقر ، تزين غرفتهم صورة كبيرة للمسجد الأقصى الذي يتوسط بلد ينتمون إليه ولم يعرفوه قط .

كان صباحا مؤلمًا ، بدت علامات الأرق على عيني ، عقلي الصغير يتوجس الكارثة، لكنه يجهل كنهها .

ما إن سطعت الأشعة الصباحية على أرائك (تغريد) الحمراء، حتى كنت أعتلي إحداها ، أنتظر من يطل علي من إحدى الغرف الثلاث المغلقة ... متوقعًا خبرًا مزعجا ستحمله لي (تغريد) ، أو (تيسير) زوجها .

لم يقض تيسير ليلته في منزله تلك الليلة .. بل في منزل الإماراتي (أبو مساعد) ، لم يكن سوء علاقته بتغريد سببا لقضائه

الليلة في مكان آخر ..فهو رغم توتر علاقتهما ... يشتاقها كثيرا، خاصة حين يسافر ، وعادة ما يفعل ، بسبب عمله في جامعة (مينيسوتا) التي لجأ إليها بدافع الشوق ذاته ، حيث أخبر تغريد أنه لم يجد عملا في (كاربونديل) ، في حين أنه تركها برغبته حتى يشتاقها فقط .

لم تطل علي (تغريد) .. لا وجود لمن يجيبني عن تساؤلاتي ، حتى الهاتف الذي اعتدت مكانه في بيت جارتنا الطيبة ، اختفى..لتزداد حيرتي .

أطل وجه أمي من غرفة (تغريد) ، لم أكن أعلم أنها تبيت هنا..انقبض قلبي لحظة خروجها من تلك الغرفة ، بدت منهكة ، تجر قدميها بتثاقل كبير ، أطلت في غرفة الأطفال بهدوء ... فاجأها غيابي ، فزعت ، عادت للغرفة وهي تنادي : "إنه ليس هنا يا تغريد" .

لم تكد تكمل جملتها تلك ، حتى فزعت مرة أخرى ، حين شاهدتني منتصبًا على إحدى الأرائك الحمراء ...احتضنتني بشدة ، عندها تأكدت أن هناك مكروه.

- أين والدي ؟

انتظرت اجابتها طويلا .. لم أكن أرغب لحظتها سوى أن تقول لي :

"إنه بخير ، وينتظرنا" .

همستُ لذاتي :

" أنا وأمي وأبي ، الأهم ..أن نكون بخير هو الأهم" .

همستُ لها بهدوء :

- أبي يحبك بشدة ، يبدو أنكما مختلفان ، أعرف أنك متأثرة لأنها المرة الأولى، لكن الجميع يقول إنها أمور عادية ، أتعلمين أن الناس يعتقدون أنكما لستما طبيعيين ؛ لأنكما لا تختلفان على الاطلاق . أرجوك أمي مهما يكن انسي الخلاف وتعالي لنعود إليه ، أنا متأكد من أنه ينتظرنا .
- عزيزي ، أنت محق ، إنها المرة الأولى ، فما حدث لا يحدث إلا مرة واحدة ... الانسان لا يموت مرتين .

أيقنتُ أن أبي لن يعود ...ولم أتساءل بعدها .

لم أبك لحظتها ، ظللت مصغيا باهتمام لنشيج والدتي التي سال مخاطها على خدي الأيسر .

تذكرتُ (جوان) أنني لم أكمل الثامنة بعد ، صمتت للحظة ، فطفا على السطح نشيج آخر ، كان لـ (تغريد) وهي تحاول كتم نحيبها ،ملتصقة بالجدار ، منصتة لفلسفة الحب والموت ، التي اعتادت عليها طوال حياتها .. فتتوسد مآسيها بعينين تأسرهما لوحة شجرة الزيتون ، التي تحتل ثلث حائط غرفتها .

جاء حوارنا الباكي لينكأ جراح (تغريد) التي لا شفاء منها ، انفجرت دموعها بعد أن اعتقدت أنها تحولت إلى آلة لا مشاعر لها.. آلة اعتادت التنقل بين القنوات التي لا تنفك تحصي عدد الموتى في بلاد تركتها طفلة .. لا يربطها بها غير جدّة لا تبرح أرضها قط ، وأغنية قديمة تناجي النعش على الأكتاف ، وتتشبث بفصمة الزيتون بحب .

* * *

حين جاء والداها للمؤازرة ، لم تقو (جوان) على استقبالهما في منزلها الذي لم ترغب الإقامة فيه دون (فوزي) ، قضيا أقل من أسبوع في فندق (رمادا) ليعودا بعدها إلى (شيكاغو) بعد أن فشلت محاولاتهما في اصطحابنا .

لم تكن (جوان) مستعدة لاستقبال تعازي النساء اللائي تجمهرن في صالة منزل (تغريد) ، أرادت قضاء وقتها صحبة طفلها فقط . لكنها لم تنس أنهم قوم (فوزي) .

ارتدت الأسود ، إلتقت بنساء كالحات وأخريات مزهوات ، كل مندفع بقناعة مختلفة ، (سُنتهم) يرون الموت حق ولا يجوز البكاء على الميت ، و(شيعتهم) يرون في الفقيد صورة أخرى عن مآسي شعوبهم وأبنائهم ، فانهمروا حزنا فاق حزن (جوان) ذاتها .

أما أنا فلم تشغلني سوى رغبة جامحة في رؤية والدي للمرة الأخيرة ، سألتُ (تغريد)، شرحتْ لي صعوبة ذلك :

" لابد أن يغسّل ويكفن . ويتم الاحتفاظ به في ثلاجة المشفى لترحيله إلى الكويت . ليس من اللائق أن يشاهده أحد " .

ذكرتُ لها، أنني حضرتُ تأبين بعض أفراد عائلة والدتي في الكنيسة ، فاوضحت لي كيف يخضعونهم لتحسينات شكلية لتظهرهم على ماهم عليه ، سألتها:

- ألن تزينوا والدي ؟
- لا يجوز يا عزيزي
- من أجلي
- المسلم حين يموت لابد أن يغسل ويكفن فقط ، ليواجه ربه كما خلقه .
- لكني أرغب بمشاهدة أبي للمرة الأخيرة ، أطفال أولئك الموتى في الكنيسة امتلكوا فرصة الوداع الأخير ..همسوا في أذن آبائهم كثيرا من الكلمات ..وطبعوا على جباههم كثيرا من القبل ..لماذا أحرم أنا من فرصتي الأخيرة .
- لأنهم كاثوليك يا صغيري ..أنت تعرف أن والدتك مسيحية، فلماذا تقارن قوانين دينها بقوانين ديننا ! ..قالت (تغريد) جملتها تلك وهي تبتسم .

يومهـا عرفـتُ أن لحظـة وداع المسـلم مسـتحيلة ، فكتبـتُ لوالدتي :

" أمـي الحبيبـة .. قـد أمـوت فـي أيـة لحظـة ..أردت اخبـارك فقط بـأني وكمـا تعلمين مسلم كـأبي ، لـن يحـق لـك توديعي على مـا أعتقد ، فالرجل لابد أن يغسله رجل مثلـه ، وأنـا أظننـي أصبحت رجـلا . لـذا أنصحك بتـوديعي كل يـوم تحسبًا لموت مفاجئ ، فأنا .... أحب الغزلان أيضا" .

* * *

بخطاب صغير للسفارة الكويتية ، تواصلت (تغريد) مع عمي (عنبر) ، فأنقذت ما تبقى لأمي من حياة متمثلة بطفل أيقنت أهمية عودته إلى جذوره التي عشقت أحد فروعها ... ورفات والدي الذي قضى في ثلاجة المشفى أسبوعًا كاملا قبل الرحيل إلى الكويت .

إلتقيت ووالدتي بعمي (عنبر) للمرة الأولى في (ماريان) ، حيث أصغر مطار في محيط جنوب إلينوي ، والأقرب لنا .

كان (عنبر) قادمًا للتو من مطار (أوهيرا) في (شيكاغو) ، بعد رحلة يوم كامل قضاها في السفر ، قادما من الكويت ، مارًا بـ (أمستردام) التي انتظر في مطارها لمدة ساعتين .

احتضنني بشدة حين وقعت عيناه علي للحظة الأولى ، هتف باسم والدي (فوزي) ، وتدارك بلغة انجليزية جيدة نوعًا ما :

- يشبه (فوزي) إلى حد كبير.

فاجأته والدتي بلغة عربية جيدة :

- أجل !

ورحبتُ أنا :

- (قوة) عمي !

فوجئ عمي (عنبر) بلهجتي الكويتية التي وصفها بالجيدة ، وراح يترحم على أخيه الذي لم ينسَ بث الانتماء في نفس ولده رغم سنوات الغربة .

بعد أقل من يومين من إقامة عمي معنا ، إستعدت والدتي لسفرنا إلى الكويت صحبة رفات والدي .

وقررت أنا أن أحتفظ بأميركا في مكان ما في قلبي ...قد أنبشه يومًا .. إن لم تعجبني الكويت .

من مذكرات رجل يعشق تقاسيمه

كانت (جوان) تجمع حاجياتنا استعدادا للانتقال إلى الكويت .
حين وجدت دفتر يوميات (فوزي) .
ذات الدفتر المرافق لـه في تنقلاتـه اليوميـة من البيت إلى الجامعة للدراسة في إحدى زوايا المكتبة الهادئـة ، أو للقاء أستاذه المشرف على الدكتوراه .
اعتقدت (جوان) أنـه يحتوى متعلقات تخصصـه .. فلم تفكر في تصفحه يومًا .
في أولى صفحاته ، قرأتْ :

" حبيبتـي (جـوان) .. لـك تقاسيمي التـي أعشـقها ، وتقاسيمك التي أذوب فيها "
في الصفحة التالية ، شهقت وهي تقرأ :

" أعلم أنك ستغضبين مني ، ستتمنين أن تنفسي في أعماقي غضبك كما تفعلين كلما غضبتِ من سخافاتي الصغيرة .. تركي ملابسـي ملقـاة علـى الأرض .. اهمـالي لترتيـب مكتبتـي ..تلـك الهفـوات التـي تثيـرك نحـوي ..فتعتلينـي فـي أمتـع أشـكال العقاب..لتفرغي فيّ غيضك.
ليتك تفعلينها الآن ..لكنك ستعجزين عن إخراجي من تحت التراب ..التراب الكويتي ..لا تنسي حبيبتي .. لا أرغب بأن أدفن إلا

تحت التراب الكويتي ...واهمسي في أذن أخي الصغير أن يدفنني في مقابر الشيعة ...أرجوك .

أرغب أن أدفن بين الأحياء .. أؤمن بأني سأكون محشورًا بين ثنايا قبر معتم ، لكني آملُ أن تبقى ذكراي حية ، يزورني كل من يشاء ، ينثر الزهور على قبري ، يمنحني دعواته الجميلة ، ويهمس لي بما يحب ...أرغب أن يركض حول رفاتي الأطفال .. وتبيت على ترابي دموع الأحبة .. ولا أجزم إن كنت سأقوى على سماع نشيجهم أم لا ...المهم أن أضمن لعظامي سباتا أكثر حيوية كتلك التي عاشتها روحي متنقلة بين شوارع (السالمية) في الكويت وأزقة (شيكاغو) .

لا تنسي حبيبتي .. مقابر الشيعة في الكويت .

باستثناء والدتي الشيعية في باطنها ، السنية في ظاهرها ، أعلم أن جموع أهلي ، خاصة أعمامي سيرفضون وصيتي .. وبشدة أيضا ، ولا تسأليني لماذا يرفض المسلم تفاصيل مغايرة لأخيه المسلم ، لأنها حكاية طويلة جدا ، ما أنا متأكد منه أن ملك الموت يدل كل الطرق .. سواء دفنت جثتنا في مقابر سنية أم شيعية .. أو حتى على سفوح الهملايا "

كانت (جوان) تقرأ بقلب يرتعد ...متسائلة :

كيف يكتب (فوزي) عن موته الذي جاء صدفة على يد غزال تائه ؟

* * *

في صفحته التالية كتب :

" جميلتي جوان ..

قبل احتفالنا بعيد ميلاد (جمال) السابع بيومين إثنين فقط .. كان موعد الأشعة المقطعية ...بالتأكيد لم أكن سأخبرك .. كانت آلام الرأس تنتابني بين الحين والآخر ..زادت حدة الألم .. وتفاقمت معه شكوكي ..علمت أن طبيبًا باكستانيًا يرتاد المسجد يدعى (آصف) . أخبرته بحالتي ، أرسلني للمختبر ، فجاء موعد الأشعة .

توقعتها خطيرة ..لكنها كانت لحظات عادية ، عدا أني قضيتها داخل أنبوب طولاني يشبه أنفاق المياه الجارية ..

قضينا ليلة عيد ميلاد جمال بسعادة كبيرة .. وسط عائلتك التي جاءتنا من شيكاغو في رحلة الساعات الست .

جاءني إتصال (د. آصف) صباح اليوم التالي ، طلب مقابلتي، أخبرته أنني سأكون في المسجد لصلاة الجمعة في الغد ، لكنه طلب لقائي في عيادته الواقعة قبالة مطعم (بندروزا) من الجانب الآخر .

لم يوحي صوته بشيء ، أكد ذلك حين سألته عن نتيجة الأشعة ، وأجابني بأن "(أوكي) إن شاءالله" .

كان لقاء حارًا ، كباقي لقاءات المسلمين الملتهبة بعاطفة مبالغة ، وحنين تؤججه الغربة .. بدأ الدكتور حواره بـ : إنا لله وإنا إليه راجعون .

بداية مفزعة .. عززها تأكيده لي بضرورة إخباري بتفاصيل مرضي ودرجاته ، رغم أنها صراحة مبالغة في نظره ولا تعجبه كانسان يمتلك عاطفة شرقية ، إلا أن ميثاق الشرف الطبي الغربي يحتم ذلك .

سهامه اخترقتني دفعة واحدة . ولم أحتج لأكثر من تلك الجمل حتى أعي خطورة ما أنا فيه .

وضح لي بعدها ..أنني أموت .

عندها فقط شعرت بأنني لابد وأن أنتبه لبناء تاريخ مميز لابني ، تاريخ يحمل مزيج بلدين مختلفين بلغتيهما ، وديانتيهما ، وتفاصيلهما البشعة والجميلة .

تركت لدى (د.آصف) وصيتي ، أعلم أني لا أملك شيئا أوصي به ، فأنت و(جمال) أتركهما لرب أكرم من البشر .

الشيء الوحيد الذي أرغب بأن أوصي به .. جثتي .... أوصيت بدفنها في مقابر الشيعة في الكويت .

أعلم أنك ستحتارين فيما أقول .. أطلبي من د. آصف أو من أخي (عنبر) أن يوضحا لك الأمر .. أنا لا أرغب في زجك في متاهاتنا الطائفية المزعجة ...بالنهاية كلنا مسلمون ، نعبد الرب

ذاته ، ونتبع سنة النبي ذاته .. لكننا نختلف في بعض التفاصيل فقط "

كان الدكتور (آصف) خارج الولاية حين توفي والدي ، لم يكن يعلم أن (فوزي) سيموت قبل أوانه ، وأن الغزال التائه سيضرب بكلماته المتفائلة عرض الحائط :

" قد يمتد بك العمر لسنوات يا فوزي "

أبى الغزال الصغير ألا تزيد المدة عن سنة واحدة ..ليموت (فوزي) تاركًا خلفه طفلا في الثامنة ، كان يلتصق به كظله ، وزوجة تمنت أن تختفي لحظة اختفاء ظله .

* * *

"أرقام السفارة ستجدينها في أجندتي ، لابد أن تكون خطوتك الأولى نحو حياة جديدة ، ليس من معطياتها عاشق يُدعى (فوزي).

اتركي مهمة الحديث مع السفارة لـ (تغريد) ، لأنك لابد في حالة صعبة ، سيزيدها صعوبة اللكنة الهندية التي تدشن هواتف سفارة الكويت في أميركا ...نعم سفارة كويتية لكني لا أعلم لماذا يظل الكويتيون يعتمدون على الآسيويين حتى في أميركا...لماذا لا يكون موظفا أميركيا مثلا ...ابتسمي .

أما تفاصيل تربية (جمال) فأنا أوكل الأمر لك .. وفي هذا الدفتر أخصص جزءا كبيرا لجمال ، أريده أن يتعامل مع الحياة بعين انسان ، عربي ، مسلم ، يعرف كيف يخط حدودا تقيه الغرق في مظاهر لا تمت لقرآننا بصلة ، وعروبة مغلقة تجد في الغرب عدوها الأول ...

ملكتي جوان ..

جمال لك وحدك ..أثق بوعيك ، أثق بحبك لي .. وأعلم أنك سترضعيه الوسطية التي أتحلى بها ..أو تلك التي (كنت) أتحلى بها..إن شئت تربيته في الكويت فأخي (عنبر) مؤهل لخوض معارك من أجلي وأحبتي .. وأمي تعشقني حتى الموت ، ستجدين عائلة محبة ..لا تخشي موقف بعضهم من زواجنا ، صحيح أنك الأجنبية التي تزوجها ابنهم رغما عنهم .. إلا أنك الآن (أو ستكونين قريبا) أرملة ابنهم الذي رحل رغما عنهم ...قابضا على اسم حبيبته بين جنبات جسده البارد .

وإن شئت تربيته في أميركا ، فلا أجمل من أن يكون كـ (جوان) "

ذلك ما كتبه في إحدى صفحات ذلك الكتاب ، الذي لم يفسر فيه سبب تحايله الدائم على (جوان) عندما تسأله عن السفر للكويت، لم تكن تدرك سببا منطقيًا يجعله يبعدها عن بلاد يعشقها وأحبة يعشقونه.

ظلت (جوان) بعيدة عن العالم الحقيقي لـ (فوزي) في (كويت)ـه البعيدة.

أما أنا ، فلم أعرف عن انتمائي ، سوى ما تعلمته من والدي فقط .

لم يتسن لجدتي (أم فوزي) زيارتنا سوى مرة واحدة بعد أن تحسنت حالتها الصحية . كنت عندها في الثانية من عمري ، لا أذكر منها شيئا ، عدا صور جميلة تجمعني بإمرأة سوداء ، تصر على أن تغطي شعرها وجسدها باللون الأسود.

بعد عودتها من تلك الرحلة ، أصيبت جدتي بانتكاسة صحية خطيرة ، حدّت من حركتها ، فاستحال سفرها.. وحين أصبحت في الثالثة زارنا عمي (عنبر) الذي أذكر بعض ألعابه معي ... لكنه ولسبب يتعلق بزواجه ومسؤولياته الجديدة ، اكتفى برؤية أخاه زائرًا للكويت كل عام .

وحدنا أنا و(جوان) لم نزر الكويت قط . أصر والدي أن يتكفل بتلك المهمة وحده كل سنة ، بزيارة سريعة لا تتجاوز الأسبوعين .

ظل ينصح والدتي بأفضلية العودة الدائمة للكويت، كمن يخشى أن تطلع زوجته على واقع قد لا يلائمها ، فتقرر العودة لبلادها للأبد . هكذا كان تفسير (تغريد) الوحيد ، حين أسرّت لزوجها :

" أظن (فوزي) يخشى أن تنفر (جوان) من العيش في الكويت ، وعندما تعود من أجل أن ينهي (فوزي) الدكتوراه ، قد تتوحش وتقرر عدم السفر إلى الكويت مرة أخرى . عندها لن يقوى (فوزي) على اجبارها بالتأكيد .. وفي ظل جنسيته الأميركية، يصبح (جمال) مواطنا ابن مواطنة ..وفوزي وحده الغريب بينهم .

لكن (فوزي) نسي حقيقة لا شك فيها .. (جوان) تعشقه لذاته، وإن نقلها إلى أفقر دول العالم .. فما باله بأغناها "

* * *

في صفحة أخرى كتب :

" أعلم أنك تكرهين الحديث عما تسميه أنت بخصوصياتي ، لكني أخشى أن تنسي الرقم السري لحسابي الذي تصرين على عدم حفظه ..

إنه لك صغيرتي الجميلة (١٩٦١) وإن نسيته ..ابحثي عن سنة استقلال الكويت من الاحتلال البريطاني .

حين دشنتُ هذا الحساب ، كان رقمه السري مزعجًا ، لا يرتبط بأي ذكرى ، فكرت في تغييره ، فلم أجد في ذاكرتي ، مساحة رطبة ، منعشة ، تلازمها رعشة الشباب ، سوى تلك الأيام التي كنا نستعد بها للخروج في مسيرات للاحتفال بذكرى استقلال الكويت...

حقيقة لم يكن يعنينا الاستقلال ، كنا مواليد جدد لحظة الاستقلال العظيم ، كان يعنينا التجمع الشبابي المجنون ، الرقص في الشوارع بلثام يحفظ لنا ما تبقى من كرامة قررنا هدرها بحركات لا مسؤولة ، في احتفالات ٢٥ فبراير من كل عام .. حين نعود من تلك المساءات الندية نجتمع في بيت أحدنا ، ونظل نتذكر المواقف العديدة التي جنيناها في ساعات قليلة ..ونتبادل الحديث عن عيون ساحرة أسرتنا ، نجح قليل منّا في التشبث بأطراف علاقة معها . قد تدوم ، مفتاحها رقم هاتف .. كما هو مفتاح علاقتنا ، بمعية بطاقة بلون وطعم (التوفي) .

نشحن تلك اللحظات الجميلة بضحكاتنا حتى صباح اليوم التالي الذي لا نذهب فيه إلى المدرسة بكل الأحوال .

أيام لا أنساها ، نبعها تاريخ فتح أبواب الحرية لبلد صغير أدعوه بلدي "

* * *

رغم حجم دفتره الصغير .. لم يغفل (فوزي) عن ذكر كل تفصيلة صغيرة في حياتنا المستقبلية إلا وأوصى بها .

كان متأكدًا من أننا سننتقل إلى الكويت ... متأكدًا من أن (جوان) ستعود بي إلى منبع قضى فيه زوجها جل حياته .

فكتب لي عن الشوارع التي تسكع بها .. عن تفاهاته التي لم يندم عليها ، وتمنى ألا أسجن ذاتي في إطار (ابن المرحوم) الذي لابد أن يتفوق في كل شيء من أجل ذكرى والده .

أوصاني بالتسكع في مراهقتي ، والعشق في شبابي ، والبحث عن ذاتي أينما حللت .

أوصاني أن أتذكر شيئًا واحدًا فقط .. أنني انسان .. قد لا أشبه الجميع ، لكني لابد أن أشبه (جمال) .

أوصاني ألا أحنق على كل من ينتمي للون ذاته ، ويعجز عن تحقيق الانجاز الذي أتمنى إظهاره للآخر :

" طفلي الحبيب جمال ..

قد يزجك الكويتيون في خانة مهنية معينة ، أنت وحدك قادر على إثبات الخانة التي ترغبها لذاتك .. ستجد أبناء لونك يهرولون للانضمام لجموع الكومبارس الراقص في المسرحيات التي لا تكتفي برقصهم ، وتستغلهم للعب على وتر وحيد يتمحور حول لونهم .. لا تحنق على ذلك الكومبارس الأسود ، الذي عرضك لكل تلك النكات المؤلمة.. لا تحنق على نساء امتهن إحياء الحفلات في الكويت ، فأصبحت بمعيتهن ، كل إمرأة سوداء ، مشروع (طقاقه)..!

اترك الغضب جانبًا .. وفكر في أنك قد تكون (مارتن لوثر كينغ) آخر " .

* * *

لم تحمل صفحات مذكراته الكثير من الانكسارات .. كانت كلماته في مجملها تدفع للتميز .. عدا تلك الصفحة :

" لدورة المياه في المدرسة حاجة أخرى لدي ..

فيها أتلاشى عن حصة الجغرافيا قبل استعراض صور قارة أفريقيا .. لأتجنب سخرية زملائي من ضخامة ملامح أجدادي الفقراء..فيها أتلاشى عن حصة اللغة العربية قبل التغني بعنصرية المتنبي :

" لا تشتري العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأنجاس مناكيد "

كلما تطرق المدرس لعبقرية الشعراء ، تذكر المتنبي ، وكلما تذكر المتنبي ، تغنى ببيت الشعر ذاك .. يردده بتلذذ .. متوقفا عند سواد الإخشيدي بابتسامة ماكرة ، فخورة بعنصرية المتنبي ، وعبقرية كلماته الثائرة المنتقمة... من اختيار الله .

متجاوزا كفاح الإخشيدي ، الذي تحول من مجرد عبد ، مخصي يباع في سوق النخاسة ، إلى قائد حكم أجمل البلاد وأشهرها .

تكبلني تلك اللحظات .. تحبس الريق في مريئي ، تصلب أجفاني ...وتسطر أمام ناظري صور كل الوجوه السوداء التي إلتقيتها في حياتي .

أبحث عن مخرج ينقذني ... فأرصد لغة جسد المدرس بكرشه المترهل ، وذقنه المتناثر ... أمثل أني أراقب حديثه .. باهتمام ، إلى أن تستفزني حبات اللعاب التي تتقافز من فمه المحاط بالزبد .. فأتناول القلم ، أكتب كلاما لا معنى له .. هربا من عيون زملائي التي أشعر بها تعريني .. تنهش ظهري المغرق بالعرق .

فلا أسوأ من زملاء يؤمنون أن كل أسود عبد ، وكل عبد أسود . "

عندما قرأت (جوان) تلك الصفحة ، أدركت أنها لم تكن وحدها تعاني .

حتى الابطال ..
حتى النموذجيون

يعانون أحيانا .

* * *

قرأت والدتي ما دونه والدي عن يومه الأول مع التمثيل الاحترافي، كان عندها طالبا في السنة الأولى في قسم الاخراج والتمثيل في المعهد العالي للفنون المسرحية في الكويت ، حين طلبه أحد أساتذته للمشاركة في أحد عروضه المسرحية التي ينتجها ، لتميز والدي في مادة الارتجال المسرحي :

- كنت سعيدا جدا بهذا الترشيح ، همس لي زملائي بأنها البداية الحقيقية لخوض سوق العمل في هذه السن المبكرة . لفرط حماسي ذهبت باكرًا ، فكرت أن أتعرف على أجواء المكان قبل أن ألتقي أستاذي المنتج ، استقبلني أحدهم ، لم تعجبني فوقيته ، لكني تجاوزتها لحين أن أثبت له من أكون ، حجزني في غرفة جانبية ، رافقني فيها بعد نصف ساعة شباب كثر، لفت نظري تماثلهم اللوني ، ساءلت ذاتي ما إذا كان العمل عن السود أم أنها صدفة فقط ! بعد ساعتين اتضح لي أنهم اعتقدوني أحد المجاميع الذين اعتادوا الرقص في العروض السرحية مقابل دنانير معدودة للعرض الواحد.. خرجت لمقابلة ذلك الفوقي مرة أخرى ، كان يهاتف أحدهم حين رمقني :

- إلى أين ؟
- ليس كل أسود كومبارس .. قلتها بهدوء وأنا متجه للباب الخارجي للشركة.
- نعم ! ...

ظل يكررها ، إلى أن صادفت أستاذي على درجات سلم الشركة ، رحب بي جيدًا، أعاد لي كرامتي دون أن يقصد .وبدأت بعد عشرة أيام أولى بروفاتي (التجارية) .

منذ اليوم الأول أتاح لي أستاذي فرصة الارتجال أمام زملائي، منبهًا عليّ ضرورة عدم استفزاز نجومه المحنطين ... لم يمض على تدريباتنا ساعتان حتى وجدت النجوم (الديناصوريين) يرتادون جبهة الكوميديا اللفظية عبر تعليقات بشأن لوني ... مما جعل جميع فنيي المسرح وعمّاله يتركون عملهم للاستمتاع بتلك اللحظات المجانية .

كنت حينها أصغر من أن أعادي نجوما ساهموا في نهضة المسرح في البلاد ، رغم قلة وعي بعضهم ، وكنت أجبن من أن أفقد سنتي الدراسية الأولى باعتراضي على نهج أستاذي في التعاطي مع المسرح .

لكني آمنت أنها خطوتي الأولى نحو أن أكون إما :

فوزي .. الفنان ، أو فوزي .. العبد !

حضرت بروفتي التالية ، محملا بخطاب شفاهي دججته بالأمثلة الدينية التي قد تحرجهم ، مستندا إلى تدينهم الذي يعلنونه كلما جاء موعد الصلاة ، فيفترش معظمهم السجاد الطاهر ، خلف باب موارب في إحدى قاعات التبديل الخلفية في كواليس المسرح.. على أن يبقى ذلك الباب مواربًا للحد الذي يضمنون عنده مشاهدة الجميع لهم وهو يؤدون الصلاة ! حتى يحتفي العمال والكومبارس بتدين هذا الفنان ، الذي يؤدي كل فرض في وقته!

وقفت في الكالوس الأيسر ، أستعد للدخول ، وأتمتم بخطابي المؤثر الذي جهزته لمواجهة أي (إفيه) ساخر يتعلق بلوني .

قبل دخولي بلحظات سقط على رأسي مصباح ضخم كان يحمله فني الإضاءة المعلق على السقالة الجانبية .

الكل تجمهر حولي ، شعرت بدوار شديد ، نقلوني إلى المشفى الأميري ، وبعد فحوصات طويلة ، تبين أنه لا شيء يستحق .. وأن سقوطي مغشيًا علي جاء إثر صدمة عصبية لا أكثر .

استمرت البروفة بعد أن اطمأنوا على سلامتي المبدئية .. حين عدت وجدت أحد أفراد قطيع الكومبارس يقوم بدوري ، فبقيت جالسًا على مقاعد المتفرجين ، تغمرني السكينة ، ممتنا للقدر الذي خلصني من كارثة المواجهة...عازما على التحجج بالألم هربًا من التجربة بأكملها.

لم أنم تلك الليلة بعد أن أصبت بأرق شديد ، تصورته نابعاً من ألم داخلي لم يطفُ على السطح بعد .. لجأتُ لمتعتي الأولى ، فاكتشفتُ أنني انتهيتُ من قراءة (مائة عام من العزلة) .. بحثتُ عن رواية أخرى أحارب بها أرقي..لكن جميع رواياتي محشورة في مكتبة قابعة في قبو المنزل .. كما أرادت أمي للكتب أن تكون في قبو لامرئي .. ليتسع المكان (المرئي) لأطباقها الفضية ... حتى غرفتي لم تسلم من تدخلاتها ، أصرتْ أن تبقى (الزبالة) كما أطلقت عليها ، في القبو ، حتى تبدو غرفتي نظيفة دائماً ، لأنها تؤمن أن الكتب قادرة على تحويل أجمل الأمكنة إلى مخزن مهجور مليء بالقمامة !

تململت من النزول للقبو .. إلتفتُ حولي ، فتشتُ الأدراج ، لم أجد أمامي سوى مسرحية (هاملت) التي لا تفارق غرفتي ، مددتُ يدي، جربت انتقاء مشهد استثنائي للقراءة ، عوضاً عن قراءتها كاملة للمرة الألف .

توقفت أصابعي عند مشهد صلاة العم/الملك ، وتخفي هاملت وراء الستارة ، متردداً في قتل قاتل أبيه :

((هل أرسل هذا النذل إلى السماء ؟! لكان ذلك خدمة ومكافأة ، لا انتقاماً...... هل أكون قد انتقمت إنْ أنا فاجأته وهو يطهر روحه، وهو في خير أوان للرحيل؟ كلا ! إلى غمدك يا سيف. ولتصرف منى قبضة أرهب هولاً حين أراه ثملاً، أو نائماً، أو في

فورة من غضبه، أو في لذة الفحشاء في فراشه. أو منهمكاً في القمار أو الشتم، أو أي فعل لا مذاق للخلاص فيه: عندها أهو به أرضا لترفس عقباه السماء حين تكون الروح بين جنبيه سوداء لعينة كجهنم التي هي مثواه الأخير))

قرأت هامشًا كتبته يوما ما على حاشية تلك الصفحة :

"ادعى هاملت أنه لا يقوى على قتل كلاوديوس لأنه كان يصلي ، فلم يرغب أن يرسله للنعيم / الجنة ، لكن الحقيقة تكمن في عدم قدرة هاملت على الفعل "

قرأت الجملة مراراً .. تذكرت موقفي المخزي .. نهرت ذاتي: أنا أشبه هاملت .. لم أقو على الفعل أيضا .. سعدت بالحادث الطارئ في كالوس المسرح، ليس هرباً من مواجهتهم ، بل من مواجهة ضعفي .. !

قررت في اليوم التالي أن أكون فوزي الممثل الأسود .

انضممت للبروفة التالية ، بدأت المعركة مع أكثرهم نجومية، الذي وجد في تضاد لون الضمادات التي تعتلي رأسي مع لون بشرتي مفارقة مضحكة صاغها بحرفية عالية ، كمعظم نجوم الكويت ، يتقنون صياغة الكوميديا التي تخرج من رحم معاناة الناس .. ولا يتقنون شيئا آخر .. تمتمت لذاتي :

إن مُنعت الكوميديا اللفظية في الكويت لن يبقى لدينا ممثل واحد !.

نظرت في وجه ذلك البطل الورقي ، تقدمت خطوتين إلى الأمام ، بقيتُ صامتا للحظات ، تأكدت من لفت انتباه الجميع :

- ليس كل أسود (كومبارس) ، ويقبل أن يتحول إلى مادة مخجلة ، لكن كل أسود إنسان .. وكل نجم كان (كومبارس) ، لكنه ليس بالضروري إنسان.

خرجت ذلك اليوم ، وأنا أجهل خطوتي التالية بعد أن قلت تلك العبارة التي لم أخطط لها على الإطلاق . بعد أن لاحظت أن ما جهزته لا يعد سوى استعطافا مزينا بالأحاديث النبوية والآيات القرانية .. وحين قررت الرد عليه ، تذكرت أن الانسانية قبل كل الأديان والأعراف .. وأنا إنسان لم أرغب بأكثر من ذلك الحق .

أستاذي الذي لمس فيّ الإباء جيّر قسوتي تلك لتداعيات الحادث ، مهدئا من حنق النجم الكبير !

لم أكمل التجربة بالطبع.. والأهم ... لم يجرؤ أحد من يومها على نعتي بما لا أحب .

لأعيش عاشقا تقاسيمي " .

* * *

طويتُ (جوان) مذكرات (فوزي) .. ولن تطوي ذكراه التي تسكن كيانها . لملمت حاجياتها .. أشلاءها .. وحزنها المتناثر في كل ركن من البيت .

التقطتُ روحي من بين الكثير من ألعابي التي قررنا التبرع بها لإحدى المؤسسات التطوعية ، كمعظم تفاصيلنا .

احتضنني عمي (عنبر) .. وطرنا معه باتجاه كويتنا الجديدة بعد أن قضينا يوماً ساخناً صحبة أهل والدتي الذين تجمهروا في مطار (أوهيرا) في (شيكاغو) لوداعنا .

كويت بلا كويتيين !

أعجبتني الكويت لحظة وطئتها .. كان المطار متطورًا عكس ما تخيلت ، ظل عمي (عنبر) يبرر لنا تكدس الآسيويين في أروقة المطـار ، ويفـرز بعينيـه الهنـود عـن الباكسـتانيين ، عـن الإندونيسيين.. في البداية ، اعتقدت أنها قدرة عجيبة على فرز الجنسيات ، بعد ذلك اكتشفت أن جميع الكويتيين يمتلكون تلك الموهبة ، في ظل بلاد تموج في بحر آسيوي....الغريب أن تجمعات المطار كانت نسائية فقط ، فسر عمي ذلك ، بأنهم خدم منازل !

بعد سنوات ، كتبت أمي عن تلك اللحظة التي التقت فيها الآسيويات في مطار الكويت :

" لم تبتسم لي إحداهن .. كن متحفزات حين نظرن إليّ .. لكن ما إن تمر أمامهن إحدى الشقراوات اللاتي حملهن طيران الـ (يوناتيد) حتى تتغير النظرة.. يبتسمن ، يعتدلن في جلستهن .

استغربتُ قدرتهن التأقلم حسب لون البشرة ! أو أنه حلمهن في الانتقال لمكان مجهول ، لا يعلمن عنه سوى تلك المشاعر الإنسانية التي تصدرها صور(أنجلينا جولي) المأخوذة بالأطفال الفقراء "

* * *

بعيداً عن السوداوية التي استقبلتنا بها بعض نساء العائلة المدثرات بسواد يلقب بـ (العباءة) ...وبعيداً عن الحزن الذي دشن

لحظة خروجنا من بوابة المطار مصحوبًا بترديد اسم والدي (فوزي) الذي استحضره الجميع في ملامحي .

راحة كبيرة سرت في جسدي لحظة نزولي مطار الكويت ... لم يعد لوني شاذًا بجانب سمرة الغالبية من أبناء هذا البلد ..حتى أصحاب البشرة البيضاء ، وهم كثر أيضًا ، يزدانون بالشعر الأسود والمُقل الداكنة وهذا بحد ذاته يشعرني بالاطمئنان.

هكذا علمتني حياتي القصيرة .. كلما تضاءل حجم الاختلاف كلما ازداد التفاعل بين الطرفين ... كلما شعرت بالأمان .

أصر عمي أن نركب سيارته في رحلة العودة من المطار إلى منزل جدتي (أم فوزي) .. وتمنى في المقابل ألا تركب معنا جدتي التي حاولت التشبث بي وهي غرقة بدموعها . أفصح عمي عن سبب رغبته تلك :

- أعرف أمي جيداً ستظل تبكي طوال الطريق ، كما أني سأضطر لترجمة كل ما تقولانه أو تقوله هي أو حتى ما أقوله أنا .

لاحظ عمي صمتنا الطويل ، أراد دفع والدتي للحوار ، فأكمل :

- مهمة الترجمة الفورية لا تستهويني على الاطلاق ..مهلكة للذهن والجسد ، كان لدي صديق مصري رائع ، عمل مترجمًا

فوريًا لأكثر من خمس سنوات .. حكى لي كثيرًا عن الجهد الذي يبذله طوال فترة الترجمة ، حين يظل متحفزا لالتهام كلمات الطرف الآخر وتحويلها إلى لغة مفهومة للجميع ، في دقائق معدودة .

لم يعش صديقي طويلا ، أصيب بجلطة في الدماغ ، بعد أن كان لا يترك مؤتمراً أو ندوة لا يشارك بها ، محتفظا بإجازاته لمستقبل ، يعتقده قريب .. كان يبرر ادمانه للعمل :

"ما أقدر عليه اليوم لن أقدر عليه في الغد" ...

وبالفعل لم يعد يقدر على أي شيء بعد ، فلم يكن هناك غد على الإطلاق !

شعر عمي أن إشارته لموت صاحبه لم تكن موفقة ، فأردف باتجاه آخر:

- أعتذر لن تشاهدا شيئاً في الطريق غير البيوت السكنية..لكن لا تقلقا هذا لا يعني أن الكويت ليس فيها شيء يستحق النظر بالتأكيد ..

في ظل صمتنا الطويل ، كرر عمي تلك الجملة كثيرًا ..لم يكن يدرك أن وفاة (فوزي) قتلت فينا الكثير من الرغبات .

لم يعد الوطن يعني المكان الذي نقيم فيه .. بل المكان القادر على أن يقيم فينا. والكويت التي سيحتضن ترابها جثمان (فوزي)... هي الوطن الذي سيسكننا بلا شك .

* * *

رغم أن مطار الكويت منحني طمأنينة اللحظة الأولى ، وهي أهم اللحظات .. إلا أني امتعضتُ قليلا ، لإنني لاحظت أن أكثرهم سمرة يعمل في الوظائف الدنيا ، لكني تداركت مشاعري حين اكتشفت أن اللون ليس طرفا في الموضوع ، ففئة العمال غالبا من الهنود وجنسيات آسيوية أخرى...لأتعرف على نوع جديد من العنصرية.

تأكدت بعدها أن جميع الأشغال يقوم بها آخرون !

"إذن أين يعمل الكويتيون ؟ " ..سألت عمي .

" في المؤسسات الحكومية عادة ، مثل الوزارات والمدارس والمستشفيات"

رغم أن كلام عمي بدا واضحاً ودقيقاً في عيني طفل لم يتجاوز الثامنة وبضعة أشهر ، إلا أنني لم ألتق بكويتي حقيقي في الكثير من الأيام اللاحقة ، عدا تجوالهم في الأسواق بأزيائهم البيضاء الفضفاضة صحبة نساء متأنقات .

عندما ذهبنا لعمل الفحوصات الطبية من أجل الالتحاق بالمدرسة كانت الدكتورة سورية ، هكذا وضح لي عمي بعد أن اعتقدتها مصرية أو فلسطينية ، لأن كلامها بدا لي شبيها بكلام والد (عمر) المصري ، صديقي في (كاربونديل) ..وقريبا من طريقة الفلسطينية (تغريد) صديقة أمي ...كلاهما شكلا لي ارتباكاً كبيراً في بداية تعلمي اللغة العربية قبل بضع سنوات ، إلى أن بيّن لي والدي قضية اختلاف اللهجات عند العرب .

الممرضة التي قاست طولي ووزني كانت هندية ، وموظف وزارة التربية الذي سلمناه شهاداتي الأميركية كان مصريّا ، وهكذا كانت المُدرّسة التي أجرت لي اختبار الوزارة ...أين يعمل الكويتيون إذن ؟

هاج عمي حين طلبتْ الوزارة إجراء الاختبار لي ، راح يعدد لهم أهمية المدرسة التي كنت أرتادها في أميركا .

بُهرنا أنا وأمي بكم المزايا التي راح يسردها عمي عن مدرستي في (كاربونديل)، فلم نكن نعلم بأنها مهمة إلى هذا الحد ، لكن عمي أوضح لنا عند عودتنا من الوزارة أن اسم أميركا كفيل بسرد كل تلك المزايا ، حتى وإن لم تكن حقيقية...!

لم يكن الاختبار بالصعوبة التي كنت أتصورها ، سعدتْ المشرفة على الاختبار الشفوي بلغتي العربية ، وبعد أن انتهينا ، اتجهت إلى خارج غرفة الاختبار ، حيث والدتي ، وأفضتُ لها

بانجليزية ممتازة بسعادتها حين تجد طفلا عربيًا عاش حياته في أميركا ، يتقن العربية أفضل ممن يعيش في بلاد العرب...وختمت حديثها:

- اشكري والده بالنيابة عني أرجوك ، يبدو لي أن له الفضل في ذلك .

ابتسمتْ والدتي بهدوء ، أشارت نحو السماء :

- يمكنك شكره أينما تكونين ، إنه هناك ، صحبة الطيبين من البشر.

* * *

لم يستوعب عقلي الصغير العديد من الأفكار التي تحرك بلداً يُفترض انه بلدي ، لكني استوعبتُ شيئا واحدًا وهو أنني هنا مثل كثيرين غيري ، شعري أسود، عيناي سوداوان .

أحيانا ... قد أكون أشد سوادًا فقط !

تكلل مسعى عمي بالنجاح ، بعد أيام قلائل إلتحقت بالمدرسة، كان يتمنى تسجيلي في المدرسة الأميركية لكن والدتي أسرت له برغبتها في تسجيلي بمدرسة حكومية تقوي عربيتي ، وكويتيتي ، بدلا عن أمركة المدارس الأجنبية التي لن تضيف لمستوى اللغوي أفضل مما قدمته مدرستي في (كاربونديل).

والدتي أرادتني عربيًا ، كويتيًا كوالدي الذي أحبت .. مسلمًا ككل المسلمين الذين يؤمنون بأن البشر سواسية .. يفخرون بسواد دثر ملامح مؤذن الرسول (بلال الحبشي) ... يطوفون حول (كعبة) سوداء ...ويقبلون (حجرها) الأسود .

لكن عمي أوضح لوالدتي خوفه من تراجع مستوى الدراسي في المدارس الحكومية .. فتوصلا لحل وسيط يقضي بالتحاقي بإحدى أهم المدارس العربية الخاصة التي لا تقبل إلا المتفوقين من الطلبة .

أيام قليلة ، تعامل معها عمي بجدية شديدة ، أهلتني للبدء بارتياد مدرستي الجديدة ... لأكون أحد طلبتها الكويتيين/ الأميركيين القلائل .

* * *

ارتدت المدرسة في (كاربونديل) لسنوات ، لم أعرف يوما مصطلح ابن المدرس ، أو ابن الناظر .... منذ أن جئت إلى الكويت وهذا المصطلح يتردد أمامي .

بنات عمتي يشعرون بغيرة شديدة من بنت الناظرة ، وابن عمي يؤكد لي أن ابن المدرس انسان محظوظ ، حتى ابن أمين

المخزن ، أو أمين المكتبة ...كلهم محظوظون ، عندها تمنيت لو أن أمي تتحول إلى معلمة في مدرستي ، لأصبح أنا ابن المعلمة!

لكن عمي أوضح لي أن هذا الداء غير مُستشْر في المدارس الخاصة ، ولن ألحظه كثيرًا .

المدرسة كانت جيدة على مستوى الفصول ، عدا لونها الكالح ، مثل غالبية المدارس التي شاهدتها هنا ، للألوان فلسفة خاصة حيث كنت في (كاربونديل) ، يبدو أن الكويت لم تكتشف تلك الفلسفة بعد !

لفت نظري أن ابن عمي ظل يلح علي أن أذكر له جنسيات زملائي ، وحين أخبرته بعدم معرفتي استغرب ، واستهزأ بي .

لاحظت طوال جلساتنا العائلية ، الاهتمام بذكر الجنسيات :

- المدرسة المصرية .
- الموظفة اللبنانية.
- الطبيب الفلسطيني.
- المدرب السوري.

وفوجئت بقدرة جميع أفراد عائلتي على الحديث مع أصحاب كل تلك اللهجات، وضح لي عمي :

كلنا واحد .

ساءلت ذاتي عندها :

طالما أن (كلنا واحد) لماذا نلقبهم بجنسياتهم إذن ؟!

حين سألت والدتي أكدت لي أن الأمر لا يختلف كثيرا عما يحدث في أميركا :

"لو أنك أصغيت لأحاديث الناس هناك لتلمست هذا الجانب ؛ المحل الإيراني ، سائق التاكسي الباكستاني ، الحي الصيني "

همست لذاتي :

حي السود أيضًا !

الجميع يُعرف بانتمائه ، إلا نحن .... نعرف بألواننا !

* * *

بعد وصولنا للكويت بأشهر قليلة ، عشت للمرة الأولى تجربة مختلفة لشهر رمضان ، عن تلك التي عشتها في (كاربونديل) بصورة لم تتعد باب بيتنا الصغير ، عدا تلك الأمسيات المغايرة التي نقضيها رفقة (تغريد) وعائلتها .

أما في الكويت ، فقد شكل شهر رمضان طقسًا دينيًا ممتعًا .. أمي تتعلم فيه أصنافا جديدة ، وتفرح لأن ساعات العمل أقل من المعتاد ، وان كانت تستغرب من تهرب معظم زملائها من العمل بحجة الإرهاق !

في رمضاني الكويتي الأول ، لم أكن قد أكملت التاسعة بعد ، صيامي عن الأكل لم يكن يتجاوز الساعة الثانية ظهرًا ، وبعد أن يدمرني الجوع ، أكتشف أن جميع المطاعم مغلقة .

فوجئت أنه لا مكان لفاطر ..مريض ، مسن أو طفل كان ...بل أني تذكرت مرة من ينتمي لأديان أخرى .. ومن لا دين له !

جميل أن ترى البلد الذي تعيشه يمارس الفعل ذاته ..جميعهم يصوم ، جميعهم يتحلق في وقت واحد حول سفرة الطعام ..لكن كم هو جائر أن تدوس على عنق ذلك المختلف لتجبره على أن يقوم بالفعل ذاته .

تستمتع بإجباره على تمثيل دور الصائم أمامك رغم أنك تدرك أنه لا يدين بدينك ولا يؤمن بفروضك ... وكم هو بشع أن يرتعد الانسان من فكرة الاختلاف..فلا يقوى على الإفطار طالما أن هناك صائم في الطريق !

يبقى رمضان بالنسبة لي ولأمي شهر روحاني أجمل ما فيه تلك اللحظات التي أرصد فيها صلوات جدتي ، وموائد الإفطار التي تنتشر في كل مكان ، حيث أراقب العمال وهم يصطفون للحصول على مكان مناسب للاستمتاع بتلك الموائد ، وإن كانوا من ديانات أخرى .

في رمضان تتحقق معظم التعاليم الموجودة في كتاب التربية الإسلامية ، لا أعلم مدى نقاء تلك الأفعال .. ما أعرفه أنها تتحقق أمامي على الأقل في ذلك الشهر المختلف .

* * *

في الكويت سارت سنواتي بسرعة كبيرة ، وحب أكبر .

طوقتني (السالمية) بتفاصيلها ، بعضها ذكره والدي في مذكراته ، التي لم ينس أن يؤكد فيها :

"درست في مبنى مغاير لذلك المتهالك الذي يلتصق بظهر نادي السالمية قرب بيتنا ، والذي يشكل أضحوكة حين تقرأ تلك اللوحة الكبيرة التي تعتلي بوابته (المعهد العالي للفنون المسرحية) ، فلا مظهره يوحي بالعلو ، ولا ألوانه تعبر عن حس فني رفيع ، كما يفترض !"

لكن أجمل زوايا الكويت ، بالنسبة لي ، تمثلت في تقاطيع وجه جدتي التي كانت لا تسمح لأي كان أن يغضبني.. أنا أولاً .. وأمي ثانيًا .. نحن أحبتها المفضلين .. كان الجميع سعيدًا بنا .. عدا عمتي (نادية) ، الوحيدة التي تعيش مع جدتي في ذات المنزل.. لم تأت للمطار لاستقبالنا . ولم نشاهدها يوم وصولنا .

في اليوم التالي فقط .. صحوت من نومي ، أخذت أتفقد البيت وهو خال من البشر الذين كانوا بالأمس يملأونه صخبا ..احتفالا بنا ، دخلت المطبخ .. وجدتها ، نحيلة ، جميلة .. أجمل عماتي

الـثلاث ، نظـرت لــي بهــدوء ... كــادت تبكــي .. اغرورقــت عيناها..إقتربت مني كلمتني بانجليزية جيدة :

- أنت (جمال)!؟ هل تعرف من أكون ؟.. أنا عمتك الصغرى (نادية)

احتضنتني بعنف . قبلتني ، أردفت :

- هل تعلم أنك تشبه أباك كثيراً ؟

أجبتها بتوجس :

- نعم يقولون ذلك ...

شجعتني ابتسامتها ، أكملتُ :

- لم أشاهدك بالأمس!

- كنت مريضة ، نائمة في غرفتي .

* * *

لماذا تجلس (نادية) وحدها دائمًا .. وترفض محادثة والدتي.. عدا يومنا الثاني حين سلمت عليها بجفاء ؟ .. شعرت بذلك التساؤل يشغل بال أمي . ولم تجد إجابة عليه إلا عند زوجة عمي (عبير) :

" كانت نادية تحب شاباً شيعياً ولكنها لم تتزوجه، لأن الجميع رفض ذلك "

ما إن نطقت (عبير) بكلمة (شيعي) حتى انهالت عليها أسئلة أمي التي لم تنتبه إلى أن معظم أسئلتها مكررة ..ما معنى شيعي ؟ كيف يكون الانسان شيعياً؟ ما هي طقوسه ؟ ...

لم تدرك (عبير) أن تلك الاسئلة أساسها وصية (فوزي) الذي أراد لجثمانه أن ينام في مقابر الشيعة ، عادت أمي لحكاية عمتي (نادية) :

- وهل هي هكذا منذ تلك الحادثة ؟

- أصبحت مكتئبة جدا .. لدرجة أنها بدأت تتناول بعض الأدوية الخاصة بالاكتئاب .. ولولا أن (عنبر) تنبه لذلك ومنع عنها تلك الأدوية لكانت حالتها أكثر سوءاً ..

- لكني لاحظت أنها تتجنبني وابني أكثر من الآخرين ..

- هي هكذا مع الجميع .

لم تفصح (عبير) عن باقي القصة .. أهم ما فيها ... لكن أمي ظلت تفكر بفداحة الفعل الذي مارسه الآخرون في حق (نادية) !

* * *

أجتاز مراهقتي بهدوء ، وسعادة . إثر أمنيات تتحقق بسهولة في بلاد اعتادت تحقيق الأمنيات لإبنائها ، وعائلة محبة تجدني بطلها المفضل .

يومي يكتظ باللقاءات العائلية .. لم نكن نعرف أن لوالدي أبناء عمومة بهذا العدد ...الكل مبهور بي .. نساءهم ينادونني بـ (ابن الغالي) وفتياتهن يلقبنني بالأميركي ، أما الأطفال فبعضهم اندمج معي بسهولة بسبب ارتيادهم مدارس إنجليزية، والبعض الآخر تنهرهم امهاتهم إن ابتعدوا عني ، حتى يستفيدوا من لغتي ، التي يجدونها صعبة جدا في مدارس حكومية تقرر الإنجليزية لساعة واحدة في اليوم !

بجانب إصرار نساء العائلة أن أتحدث بالانجليزية مع أطفالهم ، أجد جدتي تصر على ممارستي للهجة الكويتية .

وأمي سعيدة بكل هذا الحب الذي أحاط به ، لم تندمج مع نساء العائلة بعد ، لكنها تتقن تمثيل ذلك ، مجاملة منها لعائلة احتضنتنا منذ اللحظة الأولى لوصولنا.

في الكويت كل شيء ممتع .. عائلة كبيرة تجمعها مناسبات أسبوعية ، أصدقاء يشبهونني ، هدايا لا حصر لها ، ومدينة (ترفيهية) لا أحتاج لساعات طوال حتى أصل إليها ، كما كنا نفعل في رحلتنا السنوية لمدينة (six flags) في (سانت لويس) التي تبعد عن (كاربونديل) ثلاث ساعات .

في الكويت لم أكن وحيدًا كما كنت في حي (الساوثرن هيلز).. عائلتنا كبيرة، والمدرسة تكتظ بكل درجات اللونين الأسود والبني .

في الكويت لم يعتقد أحد أنني أحتاج للنظافة ...بل وجدت أن الناس هنا تخشى أن تؤذي الأسود فتطلق عليه لقب (الأسمر) ... وإن كنت أرى نفيهم لسوادي دليل على رفضهم له..لكن ، وكما تقول أمي :

" لابد أن نتعامل بنية طيبة "

* * *

"لم أعد أعاني على الإطلاق"

هكذا كنت أداعب أفكاري كلما شاهدت فيلما أميركيا يصور معاناة أبناء جلدتي .

حتى تلك المفردات الغبية التي يرددها قلة من زملاء الدراسة، وأبناء الشارع ، في الكويت ، كنت أتقبلها بـ (نية طيبة) كما أوصتني والدتي .

فأتقبل نعت زملائي لأنفسهم بـ "عيال البطة السودة" حين يحرمهم المُدرس من بعض الفرص ، وأتجاوز حماقات (سعود) ابن الجيران حين يطلب مني ارتداء ألوانا فاقعة عند لعب كرة القدم في المساء .

لكن ، وبعد سنوات طويلة ، وجدت أني تجاوزت العديد من الحماقات العنصرية ، عدا بيت من الشعر لعنصري يقول عمي إنه شاعر عربي عظيم، وتقول أمي أن والدي حدثها كثيرًا عنه ... يُدعى المتنبي !

رغم اعتراف والدي بعنصرية (المتنبي) الذي أزعجه ببيت الشعر ذاته فترة المراهقة ، كما دون ذلك في مذكراته ، إلا أنه كان مسحورًا ببراعته وعظمة أبياته.

قلقي من (المتنبي) لم يصل بي إلى حد كرهه . لكنه حثني على نبش الكتب والدواوين في فترة المراهقة ، وإعادة النظر في الشعراء العرب خاصة... جعلني أتساءل عن نواياهم الحقيقية ، أتساءل عن البلاط الذي يرتاده أي منهم ..فتلك السيَر التي قرأت الكثير عنها ، أكدت لي أنه حيث يوجد البلاط ..هناك شاعر يقوم بمسحه !

بعد سنوات ، تذكرت ملاحظتي تلك ، همستُ لعمي بها ، فابتسم قائلاً :

- خدم البلاط كثر .. في تلك الأزمنة كانوا يُحصلُونَ تملقهم بلغة جزلة عظيمة عبر أبيات فصيحة ، تسلب الروح رغم بشاعة أهدافها ، وهذا ما جعل والدك يعشق رجلا ينعته بالعبد .

أما اليوم فقد تعرت الأهداف والوسائل ، وصارت لغة خدم البلاط وحاشيته ، فجة ، عنيفة ، بولادة عسيرة تلفظها رحم أرض قاحلة ، اعتادت أن يرتادها بشر استمرأوا القتل والغدر ... فتغنوا بفجاجتهم ، غدرهم ، ووجدوا في أبياتهم (النبطية) وسيلة سريعة للعطايا التي يعجزون عن الحصول عليها بجهدهم ... واكتشفت بذورهم هذه المزية فعرفوا معنى أن تكتب بيتا من الشعر لتستجدي

به الحاكم ، المسؤول ، النائب ومن قبله شيخ القبيلة ، وتيقنوا أنها وسيلة أسهل بكثير من أن تعتلي حصانك لتغزو قبيلة مجاورة وتقتات على غنائمها .

- بت أخشى الشعراء يا عمي .

- لا خشية من شاعر يتغنى بكلمات ستجد كثيراً منها يعبر عنك ، للشعر ألقٌ لابد ألا تتغاضى عنه . سيمدك بالكثير من ألقه .

- كان والدي يحب الشعراء ، ويحفظ لهم ، هل تحبهم أنت ؟

- أؤمن بموهبة بعضهم ، لكني أختلف مع (فوزي) في توحده مع الشعراء.

وأردف :

- في حين لا تعنيني حقيقة الروائي أو القاص بقدر استمتاعي بنتاجه ، أجدني مكبلاً بحقيقة الشاعر ، فلا أقرأ إلا لمن أعرف ، وأحب . أما الروائي الجيد ، عادة ما يتقن كيف يصدّر لي حياة ، قد لا تكون حياته ، والقاص أيضاً يمنحني لحظة ربما لم يعشها مسبقا ..فلا يهمني موقعه من تلك الحياة ، طالما أنها استطاعت احتوائي بشخوصها وأحداثها .

- والشاعر ؟

أحـادي العطـاء ، كلماتـه تـوحي بأنـه لا يمتلـك عـدا حياتـه ومواقفه وخبراته ليصدرها.. إنـه يصدر ذاتـه وإن لـم تتناسب ذاتـه مع متلقيها ، لن يبقى للكلمات معنىً...هكذا أراه .

*   *   *

حـين تشـعبت قراءاتـي ، اكتشـفت بريـق الأصـوات ، صـوت الشخصـية ومقابلهـا ، صـوت الكاتـب ودواخلـه . وتـذكرت عمـي ، باسترســاله ذاك ، وأدركـت أن القــراءة المتواريــة خلـف رغبــة اقتناص روح الكاتب ، قراءة قاصرة .

لأنطلق في رحلة عشق فن الروايـة .. متحاشياً الشعر الذي لم أستطع أن أتجاهل خشيتي القديمة منـه ، رغم محاربتي للقراءة القاصرة !

الخـــــــال!

ممتعة الحياة عِشرة أهل يلوذون بذكرى جميلة تسكن ملامحي وتنام في تكويني ... أهل عشقت تجمعاتهم ، ضحكاتهم التي لا تتوقف...وتلقفهم للحظات الفرح .

رفقتهم ، كان لكل مرحلة من حياتي ، اكتشاف (كويتيّ) جديد.

أذكر يوم أكملت الرابعة عشر من عمري ، كان الجميع يستعد لحفل عيد ميلاد (ابن الغالي) ... أصرت جدتي أن يكون حفلاً كبيرًا لتفوقي الدراسي في سنتي الثانية ، من الثانوية العامة .

لا أعلم لماذا تستهلك الكويت بعض السنوات الإضافية من عمر أبنائها في الدراسة ، أنا الوحيد من بين زملائي أنهي هذه المرحلة بهذه السن ، بعد أن أنقذني اختبار القدرات الذي أهلني لتجاوز سنتين دراسيتين كانت المسؤولة في الوزارة تصر على إغراقي بهما .

سعادة جدتي وأعمامي كبيرة جداً.. فاقت سعادة والدتي التي شابها قلق خفي حين لمست فيّ رغبة البقاء في الكويت خلافا لطموحها بالعودة معي إلى أميركا لاستكمال الثانوية .

لم أواجهها برغبتي ، ولم تواجهني بخيبة أملها بعد .. لحين انتهاء الحفل.

ابن عمي (سعيد) الذي يكبرني بثلاث سنوات ، جاءنا فرحاً وقت الغداء ، أخبرنا أنه اتفق مع الفرقة التي ستحيي الحفل بمبلغ بسيط جدًا ، وأردف بانتصار :

- قلت لهم (بعد إحنا خوال مثلكم)، فأعطوني نصف السعر.

راح الكل يضحك عداي وأمي .. أوضحت لنا عمتي أن (الخال) هو الأسود .

وتذكرت أنني كنت ألقب أحيانا بـ (الخال) من قبل أحد زملائي في المدرسة، كنت أتصوره لقبا كويتيًا يطلق على المقربين من الأصدقاء .

عندها فقط عرفت لماذا أنا (خال) !

* * *

بعد انتهاء حفل عيد ميلادي ، تعرفت على حجم الهاجس الذي يسكن والدتي، حين أفضت لي برغبتها في العودة إلى أميركا، لاستكمالي الدراسة الثانوية ، حتى يسهل علي الالتحاق بالجامعة دون اختبارات مسبقة :

" اختبارات القبول في الجامعات الأميركية تفوق قدرات الطالب الأميركي ، ويظل يدور في دائرتها لعدة أشهر ، فكيف بك أنت بعد سنوات من الإقامة في الكويت؟! "

لأمي مكانة خاصة يصعب عليّ التعامل معها ..إحساسي بغربتها رغم التكدس العائلي الجميل ، جعلني أتجنب إلحاحها بصور عدة ، أضمن فيها الهروب من المواجهة .

بينما هي تخطط للعودة ، كنت أسعى لإتقان سبل البقاء . لم تعد اللهجة عائقا للتواصل ، لم تعد الدراسة حاجزاً لاقتحام الجامعة، التي صعقت أنها الوحيدة في بلد يقتني فيه فقراءه أجهزة حديثة لم تدخل بيوت أغنياء (شيكاغو) بعد .

غربة أمي بدأت منذ اليوم الأول الذي ارتدتُ فيه المدرسة في الكويت ، حين باتت تشعر بلا جدوى وجودها في بيت كبير ، بالكاد يلتقي أبناءه في النهار ، ويتكدس بهم في المساء .

أشار عليها عمي بالعمل ، بمعية شهادتها في إدارة الأعمال، مؤكدا أن تكرار اسطوانة (أميركا) على مسامع الطرف الآخر كفيلة بتوفير فرص جيدة .

بعد أشهر من إقامتنا في الكويت ، التحقت (جوان) بالعمل في إحدى شركات الاستثمار الكبرى . لتكتشف أن ساعات العمل

اللاانسانية تستهلك جهدها ووقتها ، وتسلبها لحظات الأمومة التي لم تستمتع بها بعد .

أفصح لها عمي ، من أن الساعات اللاانسانية تطبق في المؤسسات الخاصة فقط ، المؤسسات الحكومية تقر نظرياً ساعات عمل مريحةٍ جداً ، ومع مرور الوقت ، يتحول القرار ، عمليا ، لضمير الموظف ذاته ، ما إذا أراد الالتزام أم لا ! مؤكدًا أنها بمجرد حصولها على الجنسية الكويتية ، ستحظى بفرص أفضل .

ولم يسألها عمي ما إذا أرادت الحصول على الجنسية الكويتية أم لا !

انتقلت والدتي للعمل في إدارة إحدى المدارس الأجنبية العريقة ، متخلصة من عبء العمل المسائي في تلك الشركة ، ومتفاجئة بعنجهية كثير من الطلبة وذويهم ، في بلاد كانت تعتقد أن كل من فيه مرح ، كأهلنا (الخوال) .

لم يثنها النمط الحياتي المختلف عن تجديد الأمل ، وفي عيد ميلادي التالي كررت الرغبة ذاتها .

حين كنت أستعد لعيد ميلادي السادس عشر ، الذي قررت أن يكون هادئـا بلا صخب .. كنت واثقا من أن والدتي تحضر ديباجة السفر ذاتها.

ظللتُ أتهرب من مواجهة والدتي برغبتي الدائمة في البقاء في الكويت ..بين أهل أعشقهم ..جعلوني أصدق أن (الخوال) لا

يعرفون الحزن ... أينما وجدوا، يوجد الفرح ، بكاءهم يسهل تحويله إلى ضحك ، عجزهم يسهل تحويله إلى تفاؤل..

إلى أن بت أعشق أني .. خال .

*　　*　　*

اختبارات الالتحاق بالجامعة أسهل مما توقعت ... اجتزتها بسهولة ، والتحقت بكلية الهندسة .

مبدئيا لم أتخيل أنني أتجول في الجامعة الكويتية الوحيدة في بلدي الحديث ، كنت أعتقد أن التسجيل فقط يتم هنا ، إلى أن أخبرني أحد زملائي العابرين .

المبنى شبه متهالك .. النفايات تشوه منظر البحر الذي لم يُستغل .. تساءلت لو أن هذا المكان مرفق بأحد المولات التجارية التي لاحظت أنها الشغل الشاغل لأبناء بلدي ، فهل سيظل مكدسًا بالنفايات ؟!

للحظة تمنيت العودة إلى أميركا .

كان زملائي يعتقدونني غبياً ، لأني استبدلت الكويت بأميركا، لم يعلموا أنني عنيت الانتماء ، عنيت تجمعات العائلة المحببة إلى قلبي ..لم أكن أعني جامعة كالحة بلا لون ولا رائحة .. والله وحده يعلم كيف سيكون طعمها.

*　　*　　*

لم تلون السنوات وحدة والدتي ، وشعورها الدائم بالغربة في بلاد تحتضن جسد حبيبها (فوزي) ، لا روحه .

كانت تنتقد معظم ممارسات محيطها بقسوة ، كمن يبحث عن مبررات للرحيل :

" مقزز منظر تلك النساء المتأنقات رفقة خادمات مكسوات ب (يونيفورم). العمل في الكويت لا نهاية له ! .. يبقى الأجير أجيرًا حتى حين يخرج للفسحة . الأصل في الأجير .. أنه إنسان .. لماذا تصرون على تحويله إلى أجير وإلغاء إنسانيته ؟ لماذا تبقونه أجيرًا حتى خارج المنزل ؟.. اليونيفورم خلق لساعات محددة من العمل فقط.. لكنكم استبدلتموه بالجلد ..!

لم أشاهد يوماً إنساناً بلا جلد ؟ .. ومذ جئت للكويت لم أشاهد خادمة بلا يونيفورم؟ "

كانت أمي قاسية مع عمتي لطيفة ، الملقبة بـ (أم عماد) ، التي لم تفهم معظم ما قيل ، لكنها امتعضت من أسلوب أمي في الكلام .. فغادرت البيت دون أن تنطق بكلمة .

قبل أن تخرج عمتي قالت بانجليزية مطعمة بالكويتي :

"آي ددنت توك بس عشان فور ماي بروذور " ...

استوعبت والدتي المعنى .. لكنها لم ترد .

بعدها بيومين جاءتنا عمتي .. ضمتني لصدرها .. قبلتني مراراً لحين ما خرجت أمي من غرفتها ..كنت أتصورهما لن يتحادثا .. لكن عمتي كانت أرحب من أمي.. ابتسمت وهي تقول :

"دونت ووري .. (جاندرا) وير نيو دريس .. خلاص نو يونيفورم "

ضحكت عمتي وهي تردد ... "خوال ، قلبنا أبيض" .

ابتسمت أمي وهي تحتضنها . دخلت علينا (جاندرا) بـ (تي شيرت) وجينز .. بدت لي مهندمة بعيدا عن ذلك (اليونيفورم) القبيح .

* * *

ساهمت عمتي (نادية) في شعور والدتي بالغربة طوال تلك السنوات ، كانت تتجنبها بوضوح ، ومن جانبها لم تبادر والدتي بتصرف قد تندم عليه .

لم تلتق إحداهن بالأخرى ، إلا وبادرت بالانشغال بشيء آخر كالقراءة أو متابعة التلفزيون أو الخروج من الصالة كأفضل الحلول ..

تصورتُ أنه وضع أبدي ، لكن ، ودون أن يعلم أحد ، قررت(نادية) حسم المعركة الباردة التي شنتها ضد زوجة أخيها المتوفى ، طوال تلك السنوات .

بعد أن أكملت السادسة عشر بأيام .. دخلت (نادية)غرفة أمي .. فسألتها بارتباك :

- أهلا (نادية) .. هل تريدين شيئا ..؟

- أنت من تريدين ذلك ..أرى في عينيك أسئلة عديدة عن سبب تجنبي لك

ولجمال.

- يزعجني أنك تتجنبيني بالتأكيد ، لكن ما يؤلمني أكثر ، أنك تتجنبين جمال . ابن أخيك.

- لذلك قررت أن أقول لك السبب اليوم طالما أنه أصبح في السادسة عشر ، لم يعد طفلاً .

جلست (نادية) . توجست (جوان) قنبلة تتأهب للانفجار ، شرارتها تتقد من بين تشققات شفاه (نادية) التي لا تعتني بهما إطلاقا .

صمتت (جوان) للأبد ، لتستعد (نادية) للبوح :

" كنت في الثالثة والعشرين من عمري حين تقدم لخطبتي (وليد) .. شاب وسيم يعمل مهندساً . ارتبطنا بعلاقة حب لثلاث سنوات ، طوال فترة دراسته بالجامعة ، وبعد مرور شهر من حصوله على الوظيفة .. جاءنا بكل حب واحترام .. التقت والدته بأمي .. تحدثا بكل شي ..كلانا أسمر لم يكن هناك ما يثير

التساؤل..لكن أخي المحب سأل أكثر واستفسر أكثر ..وبعد أن اكتشف انتماءه رفض .. نحن سُنّة ولا نعطي الشيعة .

ظللت أعاني ثلاث سنوات أخرى .. تقدم خلالها (وليد) أكثر من مرة .. بواسطة أمه مرتين . وبعد أن رفضت أن تهان بسبب عقيدة تفخر بها ، تقدم عمه مرة أخرى لكنه فوجئ بصرامة أخي وقسوته.. فحاولنا أنا و(وليد) مرات ومرات .

وبعد أن فرض عليّ أخي سجنا أبديًا ، خشية اللقاء بـ (وليد)، قررت و(وليدي) أن نلجأ للمحكمة .. لكني أخطأت وبحت بنيتي لأختي (أم عماد) التي دبرت مع أخي مكيدتها .. وذهبت وأخي إلى مركز الشرطة للتبليغ ضد (وليد) ، بأنه ينوي خطفي .. لم يتخذ المركز في حق (وليد) إجراءً ، لكن الوشاية أفسدت كل شيء .. مضت أربع سنوات أخرى كان أخي فيها يستمتع بدراسة التمثيل مع فتيات جميلات ..متحررات ، يمثل .. ويخرج .. قلت عندها ستتغير النظرة ..تقدم (وليد) للمرة الأخيرة وأنا في سن الثلاثين .. فأهين وطرد من منزلنا . وأبلغه أخي المحترم " لا تعرضني لإهانتك أكثر يا ابن الناس " ... فغاب ابن الناس .. قرأت لافتة في الشارع العام تعلن عن زفافه من ابنة الناس ... وبقيت أنا وحدي بلا ناس .. بلا حب .. بلا أطفال .

قبل مجيئكم بأيام كنت قد عزمت على استقبالكم في المطار..ونسيان كل شيء .. لكني ذهبت لأحد الأسواق المركزية ..

شاهدت طفلاً يميل للسمار .. جميل جداً .. راقبت حركاته بلا سبب.. رأيته وهو يتشبث بأطراف(دشداشة) أنيقة .. لمحت صاحبها..كان (وليد) .. رفقة زوجة جميلة .. بنت ناس .

يوم أهين (وليد) بكيت بحرقة .. ليس من أجله فقط .. بل من أجل سنوات ضاعت وسنوات أخرى ستضيع ..من عساه يسعى لابنة الثلاثين التي بات الجميع يعلم بقصة حبها .. لم يوافق الأخ الحنون حتى لا تتغير ملتي من سنية إلى شيعية..متناسيا أن (الخوال) فرصهم محدودة في الزواج ، الذي لابد أن يظل ضمن دائرتهم (السوداء) فقط !!

قبل وفاته بأيام كلمني (فوزي) للمرة الأولى منذ سنوات رفضه لـ (وليد).. عندها سألني أن أسامحه .. طلب مني ذلك .. لا أعلم إنْ كان حَدْسُه ألهمه الاعتذار قبل الموت المفاجئ .. بكيت .. هل تعلمين متى بكيت أكثر ؟! حين علمت من (عنبر) أن (فوزي) أوصى بدفن جثته في مقابر الشيعة ، وقتها كنت أتمنى أن نمنع تنفيذ الوصية..كيف يعترف بهم وهو جثة ولا يعترف بهم وهو على قيد الحياة ؟

أعتذر إنْ كنت قاسية معك .. لكن سامحيني .. اليوم قررت أن أنفس عن غضبي ، أرغب أن أتطهر من حقدي وكرهي لذكرى أخي القاسي الذي أوصى ، قبل سفره ، ألا أتحرر من جدران بيتنا

حتى لا ألتقي بـ (وليد) ، لم يعلم أن زواج (وليد) قتل كل رغبة في لقائه.

الآن ، وبعد سنوات من وفاة (فوزي) قررت أن أنتقل لبيت أخي (عنبر) بعد أن مرضت زوجته..قررت أن أتخلص من جدران بيتنا التي تجمعني بذكرى أخي الحنون المثقف .. زوج الأميركية .. الممثل . لعلمك الخاصّ .. (فوزي) كان سبباً وراء منع (خلوْد) ابنة أختي (مريم) من دخول المعهد .. لكنها نسيت الموضوع ، ذهبت لكلية أفضل .

يمنعها من التمثيل .. ولا يمنع نفسه من ممارسة الفعل ذاته!..

هل أذنبتُ في عقابكم على مأساة صنعها أخي الذي حرمني أن أعيش حياتي؟.. اليوم أنا أقترب من الأربعين ..هل هناك من يرغب بالزواج من ابنة الأربعين ؟

أود أن أكون حنونة مع ابنه وزوجته .. أرغب أن أغفر له .. ارغب أن أحبه بعد أن تحول إلى جُثةٍ تنام تحت الرمال ..لكنني أعجز عن ذلك .. لن أدّعي أن منظر حبيبي (وليد) وهو يُهان في بيتنا هو الذي يجعلني لا أنسى .. لن أدعي ان تلك السنوات التي قضيتها صحبة حب ملأ علي حياتي .. هي التي تجعلني لا أنسى . كل ذلك بإمكاني التجاوز عنه .. لكنني كلما نظرت للمرأة تذكرت مأساتي .. تذكرت سنواتي .. تذكرت حياتي التي ماتت قبل أن تبدأ .

حين شاهدت (جمال) للمرة الأولى .. تخيلتني أبصر طفلي .. بل إنَّ طفلي سيكون أكبر بقليل .. كنت سأسميه (خالد).. كانت هذه رغبتنا أنا و(وليد) .. في الكويت عادة ما يكون وليد (أبا خالد) ، لكن زوجك الحنون .. قتل (خالد) ....قتل حلمي في طفل يشارك أبناء أخواتي اللعب .. بدلا من أن ألعب كل يوم (جمعة) دور المربية التي تعتني بأبناء أخواتها ريثما يعشن لحظات المجون مع أزواجهن.

(فوزي) الذي تعشقين يا عزيزتي ..سلب حلمي من بين يدي.. واشبع به رغباته .. تزوج (بجوانه)الأميركية ، المسيحية .. ورفض (وليدي) الكويتي ، المسلم ..

حبيبك .. سلبني طفلي ومنح فحولته وذكراه طفلاً وسيماً تمنيت أن أنجب مثله .. منح نفسه ذكرى باقية بعد مماته..وحرمني ذكراي وأنا لا أزال أتنفس!

(جوان).. أدرك عذاباتك الآن .. لكني اليوم قررت بدء حياة جديدة ... كلانا تعشق (أوبرا) ، كلانا تثق بما تقول .. وهي تردد دائما "العفو والسماح وسيلة الضحية للخلاص .. وسيلة الضحية لبدء حياة جديدة" ... أحتاج فعلا لصفحة جديدة.. أعتقد أني أحتاج لان أحب ذاتي حتى أستطيع أن أحب الآخرين.. حتى أستطيع أن أعيش .. أخيرًا .

فهل تتصورين أن كل تلك العذابات يمكنني العفو عنها ..؟ بمساعدتك فقط . اليوم قررت أن أعفو عن (فوزي) .. احتاج منك أن تسردي لي مزاياه .. التي لم أحسها طوال سنواتي التي قضيتها في رحاب أخوته" .

* * *

قلبت كلماتها المتسارعة موازين (جوان) ، أشبه بقنبلة دمرت كل ما في داخلها تجاه (فوزي) الذي أحبت...لم تكن تتصور ذلك الملاك بتلك الازدواجية .. راجعت كل تصرفاته .. وجدتها مثالية .. همست بعباراته .. حللتها.. تلمست كم تقترب من كلمات الرب . وراحت تهذي :

" كيف لذلك الوجه النقي أن يحمل تحت جلده وجها آخر .. كيف لذلك الإله أن يكون شيطاناً ؟! يشل حياة نادية .. يعطلها كل تلك السنوات ؟" .

تذكرت ملامحه – لحظات الألم النادرة- وهو يحكي لها عنصرية جارهم حين تقدم أحد أبناء جلدته لخطبة ابنته ، فرفضه فقط لأن خالته تزوجت بأسود ، تخلى (فوزي) عن اعتزازه بذاته ، وتفاؤله بمحيطه تلك اللحظة :

" حين تقرر المرأة البيضاء الزواج بأسود ، فإنها تشوه نسب عائلتها ، كمن تُحقن جيناتها بالجراثيم .. فتخشى العائلة بأكملها من العدوى !

جارنا ذاك متدين ، لكنه يتناسى ، متى شاء ، أن ديننا يساوي بين البشر ، هم ذات البشر الذين يجاورهم أمام بيت الله في رحلة حج لا يفوتها سنويا .

يتناسى أن اللون الأسود ، خيار الله وحده ، في حين أن العنصرية خيار البشر الذي أسقطوا من حسابات الدين ، وأحاديث الرسول الكريم كل ما يُعري عصبيتهم ، ويفضح عنصريتهم .

ما إن يُنهي ذلك العنصري رحلة الحج تلك ، ويعود لسلطة قبيلته ، عائلته ، وأمواله ، حتى ينقلب على مقاييس الخالق ، ويستبدلها بمقاييس المخلوق الذي لا يتأقلم إلا مع من يشابهه حد التطابق، لا يهم إن كان ذلك المخلوق ، سيء الخلق .. المهم أن نسبه لا يشوبه عرق مختلف ...لون مختلف "

ظلت (جوان) تجتر ذاكرتها ، بحثا عن حكمته ، كلماته...نابشة دفتر مذكراته المكدس بالنصائح المحبة لطفله الوحيد !

بدموع ساخنة ، تناثرت على صفحات دفتر مذكرات الحبيب الذي كان ، تساءلت (جوان) :

"كيف نطالب بعدالة الآخر معنا ، ونحن أول من يتفنن في ظلم الآخر إن سنحت لنا الفرصة ؟!"

* * *

لم تحتمل أمي ما قالته (نادية) .. بقيت مريضة ليومين بعد أن تحدثت مع الجميع .. كل من تسألهم – بصورة غير مباشرة - يخبرها بجزء من المعلومة .. وحدها (عبير) أخبرتها بكل التفاصيل .. هي ذاتها التي سردتها (نادية) .

حجزت والدتي تذكرتان لـ (شيكاغو) ..... لم ترغب بالعودة إلى (كاربونديل) التي لا تملك فيها سوى ذكرياتها مع (فوزي) .

لم يعلم أحد سبب سفرها المفاجئ عدا (عبير) . جُنتُ جدتي حين علمت بذلك.. وهكذا فعلتُ أنا أيضا .. بقي على اختبارات الثانوية العامة عدة أشهر. حاولت أمي إقناعي بأنني مازلت صغيرًا وبإمكاني الدراسة هناك .. بكيتُ بحرقة..أصرت أنها تعجز عن البقاء لحين انتهائي من الدراسة .

طلبت منها أن تذهب هي على أن ألحقها بعد ذلك في أول الصيف لأدرس هناك .

كما وعدتها .. ذهبت بعدها في أول الصيف محملا بخبر جميل .. حصولي على نسبة ٨١.٨ % .. وأن بإمكاني الالتحاق

بأي كلية أشاء .. في بيت جدتي أنا الملك .. مازلت أحظى بالحب ، بحفلات أعياد الميلاد .. بالهدايا .. بكل شيء . في (شيكاغو) حين قضيت الصيف .. لم يكن في المنزل سوى جدتي التي تقضي نصف يومها في مشاهدة التلفاز ، أو القراءة أحيانا ، وجدي الذي يقضي يومه في المكتبة . لم يجتمع خالي وخالتي معنا إلا بعد أن جئت من الكويت بأكثر من أسبوعين ..كل منهما يعيش في ولاية . حاولتُ أن أندَمج مع جيرانهم .. لكني لم أستطع أو أني لم أرْغب بذلك على ما يبدو !

ما إن انتهى فصل الصيف ، حتى عدت إلى مكاني الذي أحب.

* * *

كان من المستحيل بالنسبة لي أن أنتقل للعيش في أميركا .. كيف أترك شوارع السالمية المزدحمة ، مطاعمها التي تقتات على تجمعات الشباب ، حميمية أسواقها ، مركزها العلمي بمبناه الفريد، بحرها الحنون حتى في ثورته ، ذكريات والدي ، بيت جدتي الدافئ.. حضنها المفعم برائحة البخور، وعائلتي الكبيرة التي لا تنفك تدللني ؟.. كيف سأترك عيوناً جميلة تنامُ في الجانب الآخر من شارعنا ؟!

اسمها (دلال) .. لم أكن ألحظ منها سوى تلك العيون السوداء التي أفرحُ حين أشاهدها بلا ألوان تلطخها .. ونادرًا ما يحدث.. كانت تتزين كل صباح تأهباً للجامعة ، وكأنها تتزين لحفل زفاف .

في البداية لم تكن تثير فيَّ أية مشاعر حين تمر بجانبي لتركب سيارتها .. إلى أن توفي أصغر أخوتها .

كان شبه صديق لي . نصحني عمي ألا أختلط به ، عدا تحية عابرة ... فاعتبرت ما قاله عمي نوعا من التدخل في حريتي .. وخرجت مع صديقي الجديد مرة .. ركبت خلفه على دراجته النارية.. كنت بالنسبة له صديقه الأميركي .. فصدح تسجيله بأغنية (leave me alone) لـ (مايكل جاكسون) وأخذ يصيح معها بلا سبب .. مرددا كلماتها بأخطاء فادحة .. تجاوزت أخطاءه وقلبي يرتجف من الخوف .. همستُ له أن يخفف سرعته .. لم يستجب .. أثاره صراخ (جاكسون) أكثر .. رفع عجلة الدراجة الأمامية ..وقتها شعرت بأني ميت لا محالة .. لا أعلم لماذا تذكرت عندها اليوم الذي قضيته في بيت (تغريد) دون أن أعرف بموت والدي..تذكرت حضن أمي وهي تعصرني بشدة .. وقتها لم أحس بشيء .. الزمن توقف لولا دموع أمّي الحارة كانت تسلخ جلدة جبهتي الناعمة ...استحضرت اللحظة ذاتها .. الزمن توقف .. ودموعي الحارة تتطاير من الجانبين . أحسست أني لا أقوى على التنفس ... شعرت إني أموت .

كان هذا يومي الأخير مع جاري العزيز ... بقيت علاقتنا لا تتجاوز تحية صباحية على أقل تقدير .. كان يقضي نصف يومه في الفراش ..والنصف الآخر على حافة الموت .

في تلك الليلة ، استعجل صاحبنا موته .. كان الجميع حزيناً عليه .. عداي .. كنت أشعر أنه كان مؤهلاً لقتل آخر .. ربما صديق جديد لا يعلم بخفايا هذا المجنون، فحمدتُ الله أنني لم أمت صحبته.

حين ذهبت للعزاء تذكرت الحوار الذي دار بين أمي وعمتي (أم عماد) وهما يشاهدان فيلمًا أميركيًا.. أرادت عمتي أن تثبت لأمي أن الأميركان بلا مشاعر.. لأنهم يرتدون أجمل الثياب يوم الدفن ، ويتقبلون العزاء بكامل أناقتهم .. ويجتمعون بعد الدفن للأكل والشراب وكأن شيئا لم يكن .

حين دخلتُ بيت جيراننا وانحشرتُ مع الجمع في ديوانيتهم .. وجدتُ الناس يتحدثون في كل شيء وعن كل شيء .. المشاريع التجارية ، السفر وأشياء أخرى لا أذكرها ..وحده أخاه الذي يكبره بسنتين بدت عليه ملامح الحزن .. بمجرد أن عدت لبيتنا .. قبلت أمي التي كانت تكتب مذكراتها .. وقلت لها :

" لا تقلقي ليس الأميركان فقط الذين لا يعنيهم الموت ! "

وفاته جاءت بفائدة أخرى . كانت المرة الأولى التي أرى بها جارتنا (دلال) بلا أية أصباغ .. بعد أكثر من أسبوعين .. كانت

(دلال) تمسك بيديها أجندتها المخملية ... وشنطتها الزيتية ... وترتدي بنطلون جينز ، وتي شيرت زيتي طبع عليه I LOVE (KUWAIT) . للوهلة الأولى شدني وجهها الهادئ .. حين اقتربت منها لأحييها وأعزيها في ذات الوقت .. لاحظتُ أنها لم تستغن عن الأصباغ مطلقا ، لكنها بدت أكثر طبيعية هذه المرة .. شعرت أنها طفلة وهي ترتدي ذلك الـ (تي شيرت) لكنني لم أتوقف عنده كثيرا .. كانت لطيفة جداً وهي تقول لي :

"أجرنا وأجرك .. مشكور وايد جمال ..المرحوم كان يعزك وايد ويقول عنك خوش ريّال" .

وأنا أتمتم :

"شكرًا للمرحوم الذي كان يخطط لرحيلنا سوية .. وشكرًا لكونها تراني رجلا رغم أني أصغرها بأكثر من سنتين على ما أظن" .

لم تدم سعادتي بصفاء ملامح (دلال)..

بعد الإجازة التي قضيتها في أميركا ، عدتُ محملا بالشوق لابتسامتها ، وملامحها التي بدت طفولية دون ألوان ، لأفاجأ بها ملطخة ، كمن تعثرت في وحل من الدقيق ، فعدتُ أتقزز منها كلما مرت بجانبي... إلى أن حسمتُ أمري ذلك اليوم .

وجدتها تثبت ملصقا على زجاج سيارتها .. عرضتُ المساعدة فانشرحتْ .. لم أركز في شكل الـ (ستيكرز) .. فوجئت حين انتهينا ... عبارة عن صورة لأحد الحكام العرب !

منذ تلك اللحظة لم تعد (دلال) تلفت انتباهي على الإطلاق !

* * *

علاقتي بالجنس الآخر ، جعلتني في كثير من اللحظات ، أستسلم لرغبة السفر إلى أميركا ، حيث أمي ، حيث كنت .

أردت أن ألجأ لمكان آخر .. مكان لا ترتبك فيه الفتاة لرؤية شاب، ولا تتوارى فيه العيون خلف حواجز هشة ، تسترق النظر بعين تُصرح أكثر مما تخفي وراء سوادها.

في كثير من الأحيان ، أكتشف أنني لا أشبه أحداً هنا ، كما كنت أعتقد ، قد يكون ابتعادي عن الجنس الآخر سببا في ارتباكي أحيانا ، إلا أنني لم أحْشَر في زاوية غريزية كما هو حال معظم زملائي وأصدقائي في الكويت .

أيقنت أن والدتي كانت محقة في إحدى (إيميلاتها) التي لا تنفك تشجعني على العودة لأحضانها :

" الحياة في الكويت جميلة ، لكننا لن نستطيع مجاراتها . لا أحتمل أن أشغل يومي بأسره في تنسيق ملابسي كمقدمة برامج

تستعد للتصوير ، لا أستطيع حجز نصف راتبي من أجل زيارات ومجاملات لا أعرف مبرر معظمها ، ولا أحتمل حضور الحفلات المتخمة بوجوه نساء مسرح (الكابوكي) ، التي حنطتها الأصباغ!

أنت أيضا ، بالأمس كنت تلعب مع ابنة عمتك (هدى) ، واليوم مُحرم عليك لقاؤها ،لأن والدها متدين ، وأنا أعلم أن لها صديقا عبر الانترنت ، لا أستطيع مجاراة كل ذلك الزيف .. حياتنا في أميركا قد تبدو مملة ، لكنها واضحة .. للملل سبب ، وحل أيضا، إن أردنا . في الكويت الأسباب معروفة ، والنتائج مؤكدة ، والحلول عقيمة ، قد تضمن لبعض الأطراف متعة آنية لكنها تؤهل لكارثة بلا شك".

اليوم وأنا أنظر لتلك العيون التي تترصد الشباب من خلف التلابيب ، وتلك الملابس البيضاء الفضفاضة التي تتناقض وفعلها مع ذلك البياض ..أتذكر كلامك يا (جوان) ... يا أمي الحبيبة .

أتذكرك حين عدت مستاءة من ذلك الحفل الذي أقامته إحدى صديقات العائلة بمناسبة وليدها الجديد :

" كل شيء بدا منظما حد القلق .. شعرت بالتوتر بعد دقائق من جلوسنا في ذلك المكان ، ننظر لمحيط مترف بعين أتعبتها التفاصيل الدقيقة التي اهتمت بها سيدة المنزل... كانت ممددة أمامنا على سرير يشبه أسرة الحوريات كما قرأت في القصص، بجانبها سرير آخر شبيه للأول ، لكن بحجم أصغر للطفل الوليد .

كل شيء متماثل إلى حد التطابق ، الشراشف ، الأغطية ، حتى ملابس الأم ووليدها كانت متطابقة ... انتشار البخور في المكان عزز فكرة العالم السفلي بديلا عن فكرة عالم البحار التي انتابتني بسبب اللون الأزرق الذي غلف الأجواء ... بدءاً بالأزرق الذي دَثَّر قطع الأثاث من أسرة وما عليها ، وانتهاء بقطع الشوكولاته الملفوفة بالأشرطة الزرقاء .

في طرف الغرفة تقبع طاولة كبيرة حملت كل أنواع الحلويات، والمشروبات.

الخادمات يتقافزن من مكان لآخر ، ينقلن الأطباق ، ويتابعن تعليمات الأم التي يفترض أنها تتماثل للشفاء بعد حالة ولادة ! يداها مثقلتان بمجوهرات ثمينة ، وتقاطيعها مثقلة بألوان الطيف... كانت تدعي التعب حين يتنفس طفلها أو يصدر حشرجة ما، فتشير لمربيته الخاصة أن : احمليه قليلاً . لكن ما إن تأتيها امرأة مثقلة بالاكسسوار والألوان، حتى تهب برشاقة كبيرة لترحب بها بعينين مدعيتين. وابتسامة زائفة .

لم أستوعب ذلك الادعاء .. لم أحتمل تلك العبودية لخادمات فرضت عليهن الحياة وظيفة مدمرة للأعصاب قبل الأجساد .

كان علي أن آخذ هدية بسيطة تناسب (المولود) .. هكذا أفهم الحياة التي أعرف ، قطعة ملابس زرقاء بحجم الكف تناسب حجمه

المنكمش . وإذا كان المولود ابناً لعائلة متواضعة المستوى أصبحت القطعة قطعتان كنوع من المساعدة.

في ذلك المساء ، فوجئت بحجم الهدايا ، والأموال التي جنتها تلك الثرية المترفة .. كانت كالغول الذي يقطن السراديب المعتمة ، يأكل الأطفال بعد أن يخطف من أيديهم الحلوى والألعاب ليحتفظ بها .

بينما كانت تلك (الغولة) تجمع غنائمها دمعت عينا المربية ، ربما تذكرت الكوخ الذي بالكاد يحتوي عظام صغارها في الهند .

شعرت أني منافقة، أساهم في طقس نفاق لا حدود له ، خاصة حين خرجت النساء وبدأت كل واحدة منهن تلعن اليوم الذي تزوجت فيه تلك (البغلة) رجلاً غنياً... هكذا قالت عمتك وهي تضحك مترجمة لي معظم ما قالته النسوة ! "

أحبك أمي ..

لكني مازلت باق .

بالأبيـض والأســـود

لـم تكـن سـمراء كمـا كنـت أتمنـى ... لـم تكـن سـوداء كمـا يُفترض..لم تكن تشبهني على الإطلاق .. تميل إلى البياض الشديد.. بشرتها توحي بجو صباحي جميل .. شعرها يفوق بشرتي سوادًا .. عيناها تفوق عينيَّ بريقا، كانت تكبرني قليلا .. فيبدو أن الفتيات الصغيرات لا يستحوذن على اهتمامي .

على كفها الأبيض الصغير اعتليت أولى درجات العشق .

مدت يدها قبلي نحو آخر نسخ رواية (المسرات والأوجاع) لكاتبي المفضل (فؤاد التكرلي) ، في معرض الكتاب الدولي في منطقة مشرف ، لا أعلم بأي عقل فكرت الكويت أن تقذف بعلاقتنا الجميلة مع الكتب في ذلك المكان النائي .

هالني الفرق اللوني بين كفينا ، وهالها هي أيضـا .. ظللنا ننظر ناحية مندوب (دار المدى) .. ابتسمنا جميعا ، فقذف الرجل الأشيب ، الكرة في ملعبي :

- كلك ذوق عيني ..! قالها بلهجة عراقية منغمة .
- الـذوق لا يجـدي دائمـا ..(قالتهـا ضـاحكة فخففـت مـن حرجي) .
- أبحثُ عنها منذ أشهر ، لكني لن أحرمكِ منها إن رغبتِ ذلك..

قلتها بتلكؤ ملموس ، لم أستطع تدارك كلماتي بسبب قدرة عيناها على اختراقي تلك اللحظة .

- إن رغبتَ بذلك ! .. سأورطك إذن .. نعم أرغب بها بشدة .

سحرتني جرأتها المعجونة بابتسامتها الهادئة.

- هي لكِ إذن .

مددتُ يدي بالرواية ، لكنها تعمدتْ تركها في يدي ، وراحت تبحث عن محفظتها بين الكتب الكثيرة التي اقتنتها من المعرض .
شعرتُ أنها تنتظر مني فعلاً ما ، مبادرة ما ، فخلتها مادية ، وقررت دفع سعر الرواية عنها ...براءتي الأميركية لم تكتشف نواياها الأجمل .

أخرجتُ مبلغاً من جيبي .. شهقتْ ، ابتسمتْ وهي تقول بتوتر :

- ألا تعتقد أن هناك سبب آخر يجعلني أبقي الرواية في يديك؟

اكتشفتُ أن محاولاتها لن تجدِ مع بليد مثلي ، فأردفتْ :

- أفتقد لأصدقاء مثقفين من جيلي .. وأنت تقرأ (التكرلي) في هذه السن .

ارتبكتُ بعد أن تلفظتْ بجملتها تلك ، صمتتْ ، فاستيقظ أخيراً عقلي الخامل ، وأسرعتُ بكتابة إيميلي ورقم تلفوني على آخر صفحات (التكرلي) .

ظللتُ أجولُ المعرض طوال اليوم أبحث عن مسرات وأوجاع أخرى...بابتسامة كامنة ، وقلب يخفق بشدة .

* * *

لم تترك لي شركات الإعلان ، فرصة المفاجأة .. كلما فتحت بريدي الإلكتروني أجده مكدساً بالعديد من (الإيميلات) التي بت أستشف فحواها قبل التورط بفتحها ، أتحول إلى كائن إلكتروني...يلغي أحياناً ، ويتورط بالإطلاع أحياناً أخرى .. محاولا التنبؤ بالإيميل المنشود ...دون مفاجأة .

لم يطل انتظاري بعد ذلك اللقاء العشوائي الجميل .

يومان وثلاث ساعات فصلت بين لحظة التقاء الكف الأبيض بالأسود ، وبين إيميل فتاتي الذي كنت على وشك إلغائه . وحده فضولي الذي أجبرني على معرفة إجابة السؤال الذي اختارته فتاتي عنوانا لرسالتها ... (بمن تُؤمن ؟)

جاءني إيميلها محملا بنص لم يذيّل باسم :

" تسعدُ بها هي ؟!

تسعدُ بنتاجها ؟!

هي اعتادت على اختراق الكتب مذ كانت تلعب بين جنبات بيتهم الصغير .

عاشت بينها فسكنتها عناوينها .

اعتادت على رؤية الأرفف المرصوفة .

اعتادت على تداول أسماء كتاب معظم تلك العناوين .

ما فضلها في أن تكون كاتبة ؟

هل ساءلت ذاتك مرة ، كيف اخترقتُ أنا مواتاً معرفياً يحيط بي .. واجتزته لأفق أحتالُ كثيراً لأسبح فيه ؟..أتدثر بالمرض حتى أختلي برواية جديدة بعيداً عن زيف الحفلات وصخبها. ولأبتعد عن زيارات مدبجة بوتيرة مرصوفة مسبقاً .. أتلاشى تحت فراش أعتليه بعين تدعي النوم وأخرى تنتظر متى تعتق الحبيب المختبئ تحت الغطاء لتلتهمه بخيال يجيد تجوال العالم رفقة شخوص روائية تسكن دواخلنا قبل أن تسكن الحياة ...

وحين أنتشي بفعل كلمات آسرة يبثها كاتب عظيم .. أصنع حفلي الخاص .. أدعو إليه مخلوقاتي البوهيمية ..وأرقص .

هل لاحظت الفرق بيننا ..؟

تلك هي .. ذلك محيطها المنحوت بمقاييس لاءمَت تقاسيمها منذ لحظات الوعي الأولى.

وهذه أنا .. جنتك منهكة بعد صراع طويل مع عالم لزج لم أكن أملك فيه سوى كوة صغيرة ، منحتْ عيناي فرصة التعرف على عالم آخر ، يشبه عالمك الذي أحببته .. فقررتُ الخروج من محيط لم أسكنه قط ..محيط شعر بتفردي منذ لحظات الاختلاف الأولى..لأتجه لمحيطك وأتوحد معه .

أتلذذ باكتشاف خباياك .. وأنتشي باكتشاف خبايا العالم...أعتنق فكراً وألفظ آخر .. أحفظ نصّاً وأتناسى آخر.. وارتعش بمتعة أن أكون ....أنا ."

صديقي الجديد/ الوحيد ، أبعث لك بنص يُحرّم علي نشرهُ باسمي الحقيقي.. كتبته لمثقف كان يُعجبني ، ظل يُحملق في كاتبة معروفة تقاربني السن .. اعتادت أن تنتصب على المنابر..وحين لمحتُ والدها الشاعر يصفق لها بحماس وهو محاط بمجايليه من الشعراء والكتاب.. علمت أن الكتابة ليست الوسيلة الوحيدة التي تحقق كينونتها..لأنها قد تحققت مذ تلقفتها أحضان أب واعٍ .

مودتي ....أنا

* * *

أدركتُ أنها هي ..

جميل أن نقرأ بوح من نحب ..

لم أستطع تجاوز (صديقي الجديد/ الوحيد) ..اقتحمتني مشاعر جميلة ، ذكرتني بلحظات طفولتي المبكرة التي كنت أقضيها في أحضان أرجوحة كانت تقبع أمام بيتنا في (الساوثرن هيلز) .. كان (مجد) ابن صديقة أمي (تغريد) ، يكبرني بعامين ، يعيّرني بهلعي من الأرجوحة ، ويقذفني إلى أعلى مداها ليثبت ذلك، لم أصرخ ، كنت أشعر ببرودة تنتاب جزئي السفلي فقط ... وأعضائي الصغيرة تتراقص ..تتملكني رغبة السيطرة عليها ، لكن

يداي المتشبثة في الأرجوحة أبت أن تتنازل عن قبضتها من أجل كبح جماح الفرح .

لم تتكرر تلك الأحاسيس منذ أرجوحة (ساوثرن هيلز) بسبب انتقالي إلى جذوري الصحراوية، القاسية ، جذور تدرك أن قتل مشاعر جميلة في قلب طفل ، كفيل بكسب فرد جديد في العائلة ، يضاف لقائمة ذكورية تروض نساءها بالعنف والقمع .

ولتبدأ رحلة التأهيل الذكوري ، كان لابد من نبذ كل ما يخص تلك المرحلة ، فأصبحتُ تلقائيًا (رجل) ، وحُرمت ألعابا يسميها أقراني في الكويت (ألعاب بنات)...منها الأرجوحة التي غابت وغاب معها فيض من فرح .

اليوم فقط شعرتُ بتلك البرودة من جديد ، وأنا أقرأ (صديقي الجديد/ الوحيد) .. فعرفتُ معنى أن أُحْرَمَ التفاعل اليومي مع الجنس الآخر.

لم يكن للأنثى وهجها حين كنت طالبًا في أميركا ، لم تكن تعنيني ، وما إن التحقت بالمدرسة (الذكورية) في الكويت حتى بدأت أتلمس ذلك الشغف الذكوري بالأنثى ، بدءاً بزملائي ، وانتهاء بأساتذتي الذين يختلقون الأعذار لمتابعة خطوات وليّة أمر أحد الطلبة وهي تتجاوز الممر الفاصل بين غرفتي الأخصائي الاجتماعي والناظر. حيث لا أجمل لديهم من مؤخرة إحداهن وهي

تتمايل خلف العباءة المصقولة ، وقد تُشلّ حركة الدراسة لبعض الوقت بفضل تلك المؤخرة النافرة .

* * *

" أنا مثقف أيضاً.. لكنّ عيناي لا تتعلقان بفتاة الصالونات الأدبية وهي تعتلي منبراً ، محاطة بوالدها الشاعر ومجايليه.. أنا مثقف تنتابني النشوة حين يذكّرني (ماريو بارغاس يوسا) بأني قد بلغت "

تساءلت للحظة قبل أن أضغط مفتاح (send) .. هل تجرأت قليلاً ؟ فوجدتني أنسج معادلتي بمنطقي الوحيد :

"لو أن فتاتي تقرأ (يوسا) فلابد أن فكرها لا يقبع بين فخذيها ، ولو أنها لم تقرأ له ، فلن تعي ما كتبتُ ".

أغمضت عيني .. تحسست الـ (send) وقفزت من مقعدي ، راقبت عملية الإرسال وأنا أقفز على سريري كاتمًا صرخة تشبه عواءَ (راعي بقر) يجول مزارع (تكساس) .

* * *

(صديقي الجديد / الوحيد) ...ظلت الجملة عالقة في ذهني ، شعرتُ أني أستمع لفتيات (ديكسي جيكس) يهمسن بأغنية (landslide) . بموسيقاهن الريفية الهادئة يرددن :

(I built my life around you)

رحت أبحث بين الأشياء الكثيرة التي تركتها والدتي ، عن CD (Home) الذي اشترته تضامنا مع فرقة (ديكسي جيكس) بعد أن مُنعن من الظهور في معظم المحطات الأميركية ، فقط لأنهن انتقدن سياسة (بوش الابن) ، قالت لي أمي يومها:

" نعتقد – دائما- أننا وحدنا في مركب الاختلاف ... العنصرية التي واجهت تلك الشقراوات ، الفاتنات ، الموهوبات ، تؤكد عكس ذلك "

ظللتُ أردد كلمات الأغنية ساعة البحث تلك ، إلى أن لمحت صورة والدي التي تتوسط غرفتي ، كان يبتسم لي ، فتذكرت أوراقه التي حثتني ألا أحرم ذاتي من حالة العشق .

توقفتُ طويلا أمام صورته الحانية ، ابتسمتُ له ، تذكرت أغنية كان يرددها كثيراً وظللتُ استمع لها في سيارة عمي ، حين اكتشفتُ أنهما يتشاركان العديد من الأمور ، إحداها (علمني عليك) لعبدالله رويشد... شعرت أني أرغب بغنائها وشفاهي تلتصق بعنق فتاتي .

يقال إن صوتي جميل ، أتلمس ذلك أيضاً ، لكني لا أشعر بالأفضلية في عائلة معظم أفرادها الأميركيين والكويتيين يمتلكون أصواتا جميلة .

عندما أسهب عمي في التباهي بصوتي مرة ، قال له أحدهم :

"ما الغريب في أن يكون (خال) صوته جميلا ؟... يا عزيزي (الخوال) مثل العراقيين ، يولدون بحناجر ذهبية ، قد يَسلبها الشقاء بعضا من بريقها ، وقد تتعزز قيمتها بفعل الشقاء أيضًا " .

الشقاء ذاته سلب معظم أبناء جلدتي سكينتهم .. دفعهم للهثِ خلف صورة تتكرر دون أن يعوا أنها لن تلفت نظر أحدهم . الأسود يرغب دائما بلفت الانتباه، لإيمانه أن الشهرة وسيلته الوحيدة لاختراق الآخر، فيتحول من منبوذ إلى مرغوب، من عبد إلى سيد .

هذه الحالة المتناقضة التي تعيشها مجتمعات الشقر والسمر على حد سواء ، حيث الشهرة تشكل النافذة الوحيدة للإحساس بالوجود ،كل ذلك دفع بالأسود للسعي باكراً خَلفَ وَهْم نادراً ما يتحقق ، ليتحول من وإلى رقم يصطف مع جموع الأرقام من الراقصين في المسرحيات ، أو العازفين في فرق المناسبات ، لكنهم تناسوا أن الشهرة لا تصيب إلا الكائن المرئي، والرؤية تنعدم بين جموع مماثلة .

قلة من السود من قرر التّروّي في حياته ، واستغلال دفق طاقته ، بتأن ودراسة لا تجعل المثقفين من السود - أمثالي -

يلعنون فيه اليوم الذي تلاقحت فيه بويضات أمهاتهم مع حيوانات آبائهم المنوية .

* * *

أستوعب تماما علاقة الأسود بالفرح ..يعشقه ، يبحث عن مصادره .. ومحيطه بجميع أجناسه وألوانه ... يحفز الآخر على الالتصاق به ليطاله قليلٌ من ذلك الوهج الباسم ...

وأتألم حين يقابل حماس الأسود باستهجان كبير ، فهذا الآخر لا يقبل أن يمارس الأسود صفاته البشرية الأخرى عدا دور المضحك فقط .

الأسود حين يغضب تتحول انفعالاته إلى (طناقر عبيد) .

كل البشر يغضبون ..

كل الأمزجة قابلة لأن تتعكر ..

وعندها يرددون : اتق شر الحليم إذا غضب .

لكن ..حين نغضب نحن ...حين يقرر مزاج الأسود أن يتعكر...يردد الآخرون :

(طناقر عبيد) ....!

تعرفت على بعض نماذج العنصرية تجاهنا في أميركا .. وحدثتني الكتب ، الأفلام ، وعبارات مقتضبة لأمي ...عن نماذج أخرى عديدة عن ذات الهم ..أيضا في أميركا .

لكنني لم أصادف ، ولم أسمع بمن يخشانا فقط حين نغضب .

حين كنت في المرحلة المتوسطة ..أيقنت أن احمرار عينيَّ عند الغضب..حق لا يمكن ممارسته .. بل إن مجرد التعبير عن الغضب حق مسلوب أيضاً ..وقررت حينها ألا أغضب لأني سئمت وصم غضبي بـ (طناقر العبيد) .

ذلك اليوم فقط .. تمنيت أن أغضب ..

* * *

توجهتُ للجامعة ، كان يومي الأول ، وبما أن مكتب التوجيه والإرشاد لم يوجهني ، فاحترت في طريقي . ظللت أدوُر باحثاً عن شاب أسأله عن القاعة المنشودة ، انتبهت أنه اليوم الأول ، وأنها الساعة الثامنة ، وقد يبدو الوقت مبكراً لخروج (الدشاديش) الفضفاضة ، البيضاء من ديوانياتها الليلية ، ولم يكن من الممكن أن أجرؤ على سؤال فتاة مدثرة بكتلة سوداء حتى وإن لطخت عيناها بألوان لم تعرفها فتيات (برودواي).

اتجهت لإحداهُن ، بدت هادئة ، بلا دثار أسود يكممها ، يعتلي رأسها حجاب يوحي بالتدين ، وإن توارت ملامحها خلف

طبقة كريمية سميكة ، مشيت خلفها ، أسرعتُ بخطواتها ، فناديتها:

- عفوا أختي ، هل من الممكن أن أسألك ؟!.
- نعم؟!! (قالتها بتحفز)
- آسف ، أبحث عن قاعة لا أعرف مكانها ، أعتذر أختي لكني مستجد .

رميتها بكلماتي المتتابعة حتى لا يقضي عقلها وقتا في تخيل سيناريو آخر.

- يالله اذلف .. مو ناقص إلا العبيد !

تسمرتُ في مكاني ، شعرت بأكتافي تلامس أرض (الحرم) الجامعي ، التي بدأت تهتز من تحتي .

أفزعني تناقض حجابها وعنصريتها التي تفرق بين البشر بعيدًا عن (التقوى) .. معيار الأفضلية في الإسلام .

تمنيتُ أن أكون منتمياً لإحدى عصابات (شيكاغو) ، لأنقض عليها ، أتشبث بوجهها، أمسح عنه أصباغه ، زيفه . أعريه من تدينه الظاهري ، وأكشف قبحه .

تمنيت أن أغضب .

لكن الأحرار فقط يغضبون ...وأنا في نظرهم ...مجرد عبد !

يســـوع !

مازلت أذكر تلك اللحظات (الكاربونديلية) التي كنت أقضيها في الكنيسة صحبة أمي ، كان الناس ، خاصة أبناء عرقي .. يهيمون عشقا بالرب الذي يسكن كل خلية في أجسادهم المتحفزة للانطلاق ، الجميع ينتظر أن يعبر للرب عن عشقه ...ولم يعتقد أحد أن الجن يسكنهم .. كما ظن أصدقائي (الكويتيون) بي .. مشبعون بأفكار زرعها أهلهم (المسلمون) عني وعن أبناء لوني :

" كل أسود عبد .. وكل عبد يسكنه جني"

فبات الكل يخشى من لحظة (نزول) ـه المفاجئة !

في تلك الكنيسة ، كان الجميع (يستنزل) دون أن يخشاهم أحد ، أو يؤمن بوجود كائنات أخرى تسكنهم ...فكانت زيارتي للكنيسة (يوم المتعة) .

لم يكن والدي ليهتم بهمسات بعض الأصدقاء والزملاء من المسلمين في (كاربونديل) ، لكن (تغريد)لم تهدأ ، وسألته :

- لماذا لا يقضي هذا الوقت معك أو معي في منزلي أو حتى في المسجد ، هناك أطفال يجتمعون يوم الأحد ؟

- أرغب أن يكون ابني منفتحاً على الآخر... ليس لأن المسيحية ديانة والدته فحسب ..بل حتى لا يظن أن ديانته هشة لابد أن يحميها من أخرى قد تزعزعها . لا يفترض بإسلامه أن يتأثر بآخر .

صمت (فوزي) قليلا قبل أن يردف :

لا خير في عقيدة يهزها مكان ، أو كتاب ، أو قس !

* * *

كانت (أم فهد) تسألني كلما رأتني في المسجد :

من تحب أكثر النبي محمد أم عيسى ؟

سؤالها مزعج .. لم أكن أحبه ، ولم أكن أحبها .. ما معنى أن تتوارى المرأة خلف اسم طفلها .. ويرفض ابنها التصريح باسم أمه لأحد ؟!

حتى أمي لم تعرف اسم (أم فهد) إلى أن غادرنا (كاربونديل).

لم أكن أجيب (أم فهد) على سؤالها ..لكن في داخلي كنت أردد : أحبهما معا.. فأنا لم ألتق بأي منهما ، لماذا أحب أحدهما أكثر من الآخر ؟!

"محمد رسولنا ، وعيسى رسول دين والدتك وأهلها...كلاهما أرشد الناس لدين لم يعرفوه من قبل ، كانا يحبان الجميع ويعلمان الجميع بود كبير"

هكذا كنت أفهم معنى اسم (عيسى) و(محمد) كما شرحهما والدي بهدوء شديد ، مضيفا:

"الاسم محمد قدسية كبيرة لدينا كمسلمين ويفضل أن نردف بعده (عليه الصلاة والسلام) ".

تفهمت شرح والدي بما يتناسب وسني تلك الفترة ، وظللت أردد :

أحب الإثنين معًا .

ولكني عندما سألت والدي مرة عن صورة لـ (محمد) ، أكد لي أن ديننا يمنع تصوير الرسل لقدسيتهم .

فاكتفيت برؤية مجسمات وصور (عيسى) فقط .

والتي انزعجت بسبب إحداها يوما ما .

* * *

كثيراً ما كنت أشاهد مجَسَّم يسوع في كنيسة (كاربونديل) .. أحببت المجسم الذي يضمن أسر نظراتي طوال وجودي كل يوم أحد . إلى أن شاهدت برنامجًا سياحيًا على إحدى القنوات المحلية لجنوب إلينوي . قدم البرنامج التسجيلي جولة سريعة في إحدى الكنائس الأوربية ، كانت أمي تقف في مطبخنا المشتبك مع غرفة المعيشة ، حين أشارت عليّ ألا أغير القناة ، مؤكدة أهمية الكنائس الأوربية لعراقتها التي تفوق عمر الكنائس الأميركية بمئات السنين ... كنت أستمع لوالدتي بانصات ، إلى أن وجدتني أنفصل عن محيطي للحظة فلم أعد أسمع ما تقول رغم أنها مازالت مستمرة في تحريك شفتيها ، سبب الذهول الذي أصابني فجأة عدة مشاهد

INBOX

استعرضـها البرنـامج لتماثيـل يسـوعية أوروبيـة..جعلـت عقلـي الصغير يردد:

" كل شيء أبيض حتى أنت يا يسوع " !

علمـت بعـدها بسـنوات ، أن المجسـمات اليسـوعية السـوداء التي كنت أشاهدها في كنائس يرتادها السود ما هي إلاّ إيمانـاً منـهم بانتمانـه إلـى عـرقهم ، أو وَهْمـا يفضـلون العـيش فيـه ، مقتنعـين بفكرة أنه أسود .

" وقد يكون وهمًا يعيشه البيض أيضًا "

هكذا ردّدت والدتي .

يومان ومازلت أنتظر ردًا من فتاتي . كدت أتأكد من فشل معادلتي تلك ، أنبت ذاتي على جرأتي في الحديث عن بلوغي على يد (ماريو باراغاس يوسا) ، إلى أن جاءني ردها :

" صديقي الجديد / الوحيد ..جمال ..كيف أنت ؟

أتمناك أجمل ..

في محيطي يكثر المدّعون .. قرأت مرة لمدّع ثقافة حواراً أثنى فيه على مجتمعه معلنا اتساقه معه ، وتجانسه مع محيطه الكبير والصغير ..تأكدت عندها من ادعائه .. فالمثقف يا عزيزي لا يتسق مع محيطه أيّا كان ..بدءاً بوالديه وانتهاء بأسراب تمشي خاوية في الشوارع... أظنك غير متسق مع مجتمعك أيضًا ؟

بالمناسبة قرأت لـ (يوسا) شيطنات الطفلة الخبيثة ..سعدت بها جدا ، لكني حزنت بشدة حين قرأت قصصه القصيرة . حقيقة أشعر أن المترجمة قتلته مع سبق الإصرار والترصد ، هل تعتقدها من جماعة الإخوان ..؟ خخخخخخخخخ "

مودتي

ســـــارة

* * *

لم تعتقني (سارة) .. إيميلاتها الصباحية ، تحولت إلى منبه بيولوجي يدفعني للصحو المبكر ، أركض باتجاه اللابتوب ، أفتحه، أتجه للحمام ، افرغ خزين الليل ، أعود للابتوب ، أفتح الانترنت ،

أعود للحمام أدعك أسناني ، التي يحسدني على بياضها كثيرون ، متناسين أن سواد بشرتي صنع بياضها.

أعود للانترنت ، أدخل على (الياهو) ، أشعر بملل كبير ، أتذكر أحد اليابانيين الذين قابلتهم في(شيكاغو) رفقة خالي (جيسون) في إحدى رحلاتنا الصيفية ، راح ذلك الأبيض بملامحه المنحوتة ، يشكو بطء خدمة الانترنت في أميركا !

اليوم وأنا أحملق في شاشة الجهاز .. تخيلت أني أفتح الانترنت في اليابان... تمنيت أن أفتح الانترنت في اليابان.

تقع عيناي على عنوان إيميلها الذي سجلته في أجندتي باسم (حبيبتي) ، أشعر بلهاث أطرافي ، قدماي ترقصان على الأرض ، سبابتي اليمنى تسيطر على الـ (enter) وأصابع يدي اليسرى تداعب بضع شعيرات بدأت تخترق ذقني المصقول.

أتوق للهدوء حالما أقرأ بوحها ، بعد حالة من الفوران التي تتسبب بها كلمات تعرف كيف تلسع دواخلي الندية .

حين قرأت ما كتبته عن (يوسا) .. قفزت من مكاني ، التقطت الهاتف ، تحدثت مع عمي (عنبر) ، سألته عن قصص (يوسا) القصيرة ، لم يكن يعرف بها ، أقفلت الخط . كتبت على محرك (جوجل) عن (القصص القصيرة لماريو باراغاس يوسا) جاءتني سريعة ..لكنها مجرد عناوين .. فكتبت لها :

" أردت دائما أن ألعب معك دور المثقف (الحقيقي) لا المدعي ..لكن اعذريني يا آنستي اللطيفة المثقفة ، لم اقرأ قصص (يوسا)بعد ! غير أني قرأت شيطناته الخبيثة ..لم أنم جيدا تلك الليالي صحبة شيطناته ..إنه رائع ...هل قرأت له امتداح الخالة ومذكرات دون ريغوبرتو ...؟

بالمناسبة ..أنا لا أشبه ذلك المدعي بلاشك .. فكيف لي أن أنتمي لمحيط لا يعرف أن أحد الألوان هو الأسود ؟"

بعد أن أرسلت الإيميل .. تساءلت ما إذا كنت قد تجرأت . السؤال عن (امتداح الخالة) و(مذكرات دون ريغوبرتو) ... جرأة قد لا تغفرها حبيبتي الجميلة!

لكني عدت أنسج معادلة جديدة .. بطلتها فتاتي المختلفة .

* * *

لم أنتظر ردها تلك الأمسية ، كتبت لها في اليوم ذاته :

" منذ أن جئنا للكويت ، نعيش ، أمي وأنا ، في بيت جدتي (أم فوزي) في منطقة السالمية .... بعد سنوات قررت والدتي العودة إلى أميركا ، بانتظار اليوم الذي ألحقها به .

لم أجد ذاتي في جميع رحلاتي الصيفية إلى هناك ، بت أشعر بانتماء أكبر لسنواتي التي عشتها في الكويت ، وإن كانت سنواتي

الأميركية مازالت تسكن ذاكرتي التي سرعان ما ينبشها فيلم ، برنامج ، كتاب ، أو مجرد لكنة أميركية حقيقية أسمعها في مكان ما .

في الكويت اكتشفت ذاتي من جديد . تعجبني (السالمية) بهدوئها ، وصخبها في آن واحد .

بعد أن زرت بيوت عماتي وعمي (عنبر) في المناطق السكنية الأخرى ، حمدت الله أن جدي كان يمتلك بعدا أعمق من واقعه البسيط رغم أميته ، حين قرر العيش في منطقة باتت من أكثر المناطق التي تناسب مزاج حفيده الأميركي .

لا أتخيلني أسكن تلك الضواحي الهادئة حد الصمت ، لا أتخيلني أفتح شباك البيت لأجد الفراغ يملأ ذلك السكون ..

بعد أشهر معدودة في (سالميتي) الرائعة ، عرفت أنني أنتمي لهذا المكان ، واكتشفت أن كثيرًا من أسماء الشوارع والمحلات التي كتب عنها والدي في مذكراته ، باتت ملكي الآن ، وتحقق لي حالة من التواصل مع والدي الذي أخلص في كتابة الكثير من تفاصيل حياته لطفل يرتاد بلاده للمرة الأولى .

كنت أشتاق أميركا أحيانا .. اليوم وأنا أكتب لك أجزم بأني لا أشتاقها على الإطلاق .

آمنت أن الوطن يسكن محيطا نعشقه ، نصنعه بأيدينا ، فتأسرنا حميميته. الوطن يسكن عينا نعشقها .. نشتاق إليها وإن طوقتنا بنظراتها .

هذا هو الوطن ..الوطن بالنسبة لي أكبر من مجرد امتيازات أحصل عليها بسبب ورقة..

أحيانا أهمس لذاتي : حيث يكون جهاز اللابتوب الذي يصلني بالأحبة .. يكون وطني".

محبتي

جمـــــال

بذلك (الإيميل) الطويل أردت تصدير مشاعري على استحياء. شعرتُ للحظات أني أخوض شيئا من اختبار ، أتوسل خالقي أن أجتازه ...!

بعدها كتبتْ لي :

" صديقي المثقف الوسيم ... قرأت الأولى ..(رهيييبة) ولم أقرأ الثانية بعد . أنتظر أن تهديني إياها . .... حقيقة أنا أسعى لكل ما يترجمه (صالح علماني) ، يقولون إنّ المترجم لصّ .. وأنا أرى (علماني) أجمل اللصوص على الإطلاق .

عند الحديث عن الوطن ..لابد أن أبوح لك بمعاناتي ..

الوطن الذي يرصد علي تحركاتي ليس وطني ، قبل سنوات كنت أشعر باللاإنتماء ولم أع السبب إلا حين سافرت إلى تايلند . هناك لعبت ..ركضت .. ضحكت .. تعثرت وقمت .. وكثيراً ما خرجت دون نقطة ملونة ألطخ بها وجهي . عندها شعرت برغبة حقيقية في البقاء . فكرت لو أني أعيش في تايلند سأنجز بشكل أسرع ، سأدرس بشكل أفضل ، سأقرأ أكثر ، وأكتب ما أشاء... في (تايلند) سأحتفظ بسجيتي .. وأطورها أيضا .

قبل السفر بيومين قررتْ أمي زيارة إحدى العيادات الطبية الشهيرة لعمل فحوصات دورية ، منذ لحظة ولوجنا العيادة شعرت بأن تايلند لم تعد حلمي .. اكتشفتُ أني محاطة بخليجيين كثر .. جلست أنتظر أمي لعشرين دقيقة فقط ، أحسستها دهراً . توقفت عن مضغ علكتي ، سحبت تنورتي التي شعرتها غير موجودة بسبب نظرات اخترقت الجزء الصغير الظاهر من ساقي .. تذكرت أني لم ألطخ وجهي بالأصباغ كما اعتدت .. تسللت للحمام فاكتشفت أني لم أعد أحمل حقيبة (الميك آب) كعادتي في بلدي .. بقيت في الحمام لعشر دقائق ، أسلي نفسي بالغناء تارة ، واللعب في تعابير وجهي تارة أخرى . حين عدت قررت الجلوس في بقعة خالية بعيداً عن صخب النظرات ، وقسوة رنات الموبايل . خرجت أمي من غرفة الفحص ، لتجدني قد ذبلت في تلك الدقائق المعدودة.

عندها أيقنت أن الناس هم الذين يصنعون الوطن ..وهم من يهدمونه أيضا .

اليوم أفكر كثيراً بأميركا ..كوطن .. حضن لا يحاسب ، لا يعاقب ، لا يتملل .. حضن يستجيب بلا سؤال !

سارة

* * *

فكرت كثيراً بجملتها الأخيرة تلك .. هل فعلاً أميركا الحضن الذي يستجيب بلا سؤال ؟.. هل فعلا أميركا لا تحاسب ، لا تعاقب ولا تتملل ؟

لماذا ثار السود في أميركا إذن ؟!

لماذا ذابت أميركا في قلب أمي .. إلى حين التقت فوزي ؟ ولم تعد إليها ، إلا حين ذاب فوزي في قلبها وذاكرتها !

لماذا مازال جدي يشعر بالاختلاف في مجتمع ولد وعاش فيه أجداده ؟!

التفت إلى مجموعة الصور التي تعتلي المنضدة في غرفتي ، نظرتُ لصورة جدي رفقة العائلة أمام بيتهم في شيكاغو ، بجانب الصور ، لمحتُ CD (ديكسي جيكس) الذي بت أستمع إليه كل ليلة ، عدتُ بعيني لجملة حبيبتي الأخيرة :

" أميركا .. الوطن .. الحضن الذي لا يحاسب ، لا يعاقب ، لا يتملل ، الحضن الذي يستجيب بلا سؤال "

تـذكرت ابتسـامة والـدتي حـين كنـا نتـابع رحلـة فتيـات الــ (ديكسـي جيكس) وهـن يتـنقلن مـن محطـة إلـى أخـرى ، تقـودهن (نـاتلي) ذات الصوت الملائكي ، ليبررن موقفهن بعد أن وجدن أنفسهن في مواجهة معركة خاسرة ، عنوانها (Shut Up And Sing) ، عندها قالت والدتي بهدوء :

" السياسـة الأميركيـة أذكـى مـن أن تـزج بـك فـي السـجن ، يظهر بوش الابن في الـ (ABC News)، ليؤكد أحقية الجميع في الاختلاف ... في حين تعمل الأيادي الخفية على محاربتك ، خنقك ، مسلطة عليك بـرامج السـخرية وصـحافة العنـف...إلـى أن تنـدم ، وتؤمن أن لا حق لك في أن تكون مختلفًا ، إن أردت أن تعيش ! "

لم تندم (نتـالي) على المـلأ .. اكتفت بأغنيـة (Not Ready To Make Nice) .....لكنـي أوقـن أن روحهـا حملـت نـدُبًا ، يصعب علاجها !

كتلك الندب التي خلفتها إدارة فندق عنصري ، وجد أن مكـان والـدتي فـي إحـدى الإدارات الداخليـة ، يتسـق وقـدراتها ، كتبـت والدتي عن تلك المرحلة :

" جُل ما فكرت فيه حينها ، حداثة تخرجي ، وقلـة خبرتـي ، فاقتنعت بكلام مدير التوظيف ، وبدأت العمل بجد ونشـاط ، موظفـة متدربـة فـي إدارة تقـع مكاتبهـا فـي الــ (back area) ، إلـى أن وجدت زميلة الدراسة ، الشقراء الفاتنـة (آشلي) ومجموعـة أخرى مـن فتيـات الأغلفـة ، يتلقـين تـدريبات خاصـة بموظفي الاسـتقبال الجدد ، في إحدى قاعات الفندق .

أدركت حينهـا ، أن (قـدراتي) لـن تتطـور أبدًا فـي عيـونهم ، فجاءت فكرة العمل في مراكز تعليم اللغة ، التي تمنحنـي الأفضلية بالنسبة لطلبة يجدون في لغتي حلمًا لم ألحظه قد ، وفي بـلادي بريقًا ، قد لا يراه أبناؤها!!"

طويتُ تلك الذكريات من مخيلتي ..أنعشتُ رئتي بهواء نقي ، تأملتُ رسالة حبيبتي مرة أخرى ، جربتُ أن أكتب لهـا صـورة مـن صور الحرية الأميركية! لكن، مـا إن انتهيت من قراءة إيميلهـا ، حتى وجدت رسالة جديدة منها .

حلقت بي بعيدًا :

"بالمناسبة ، لـم أخبـرك يومـا بحقيقتـين : الأولـى أنـي أعجـز عـن النشـر باسـمي الصـريح بسـبب اعتراضـات الـبعض مـن أهـل والدي الحنون ، الذي لا يرغب بخوض المعارك مع عائلة متدينـة ، في سبيل حلم (أدبي) ، جريء ، لا يستحق المعركة !

والثانية : أن لونك أجمل ما فيك ... مبدئيًا "

محبتي

ســارة

لم أقفل الإيميل تلك الليلة ..

لم أقفل اللاب توب أيضًا ...

*　　*　　*

بعد تلك الأمسية تحولت إيميلاتنا إلى عبوات ناسفة ، ملغمة بمشاعر متوارية ، لا يدرك قيمة حروفها إلا نحن .

لم أكتف بتلك الكلمات ، بدأتُ أكتب لها عن تفاصيل حياتي ، عائلتي ، اهتماماتي ... سعيًا لمعرفة تفاصيل حياتها ، عائلتها ، اهتماماتها .

فكتبتْ تقول :

" لم أحب التدريس قط ، لم أرغب بالالتحاق بكلية التربية الأساسية .. لكنها الخيار الأفضل لمن يعشق الحياة . أردتُ أن أستغل إجازاتي الصيفية في متعة السفر. فكرت جديًا بالانسحاب بعد أن عرفت معاناة بعض صديقاتي في التدريس . لكن حلم الأجازة الطويلة ... يسيطر على تفكيري دائمًا " .

توقفت طويلا عند ذاك (الإيميل) ، تشممت الخمول والكسل بين ثناياه .

لكني عدت أراجع ذاتي :

" من منا لا يبحث عن المتعة ؟! "

مــن مجمــل رســائلها ، لمســت قــوة شخصــية (ســارة) ، وسيطرتها على عائلة تعشق فتاتها الوحيدة في ظل ثلاثة أولاد ، جميعهم يصغرونها بسنوات . فهي تمثل لهم الأخت والأم والمربية في كثير من الأحيان .

تشير بعض تلك (الإيميلات) إلى نفوذ والدتها الجميلة ، وسماحة والدها الذي تعشقه (سارة) بجنون ، رغم سلبيته أحيانا .

كلما لمستُ قوة حبيبتي أدركت أن حلمي بالاقتران بها بات أقرب . فمن يقوى على وأد حلم (سارة) ؟ من يقوى على شرخ قلبها ؟

لا أعلم لماذا أردت أن أكتب لأمي تلك اللحظة :

" أمي العزيزة ..

يبدو أنك لمست غيابي عنك هذه الأيام .. لن أتحجج بالامتحانات كالعادة . إنها فتاتي .. نعم فتاتي التي أحب . كويتية ، تكبرني بسنة وسبعة أشهر ، تدرس في كلية التربية الأساسية ،

تعشق الحياة ، بيضاء كالثلج .. تسيطر على أمور حياتها بصورة كبيرة ، مثقفة جدا .

أخجل أن أقولها ، لكنني أظنها تحبني . يقلقني فقط عدم قبولها لواقعها بصورة مبالغة بعض الشيء ."

كتبت أمي :

" وهل وجدت كويتيـًا يقبل بواقعه يا عزيزي . طوال تلك السنوات التي قضيتها رفقتك ، حزنت كثيرًا على تلك البلاد الصغيرة الجميلة ، التي تعطي رعاياها بلا حدود .. وهم يرغبون بالأفضل دون أن يبذلوا جهدًا في استحقاقه .

طوال تلك السنوات لاحظت أن الكثير منهم لا يتجاوز حبه لبلاده التلويح بعلم في الأعياد ، وتذكير الآخرين بأنه كويتي .

طفلي الحبيب .. والدك كان محبًا لكويته .. يحلم باليوم الذي يمنحها فيه بعضًا مما منحته إياه . كان يؤمن أن عطايا الوطن دَين لابد من رده يوما ما ، حتى وإن كان صاحب الدين أنبل من أن يطالب به.

كن كوالدك ... لا تقضي وقتك تلوح بالعلم .. وارفع عن أرضك منديلا قد يعكر جمالها".

دمعت عيناي تلك الليلة بعد قراءتي لإيميل والدتي ، شعرت بنبلها وهي تذكر لي مزايا والدي ، متجاوزة عن الصدمة التي

تسببت في رحيلها من البلاد . دون أن تعلم أنني عرفت بالتفاصيل من (عبير) ، زوجة عمي (عنبر) ، وكاتمة أسرار عمتي (نادية) .

*   *   *

سنة وثمانية أشهر .. ونحن نكتب لبعضنا يوميًا .. باستثناء يوم سافرت حبيبتي إلى القاهرة ، قضت باقي ساعات النهار في زحام الشارع ..وحين وصلت إلى الفندق ، كانت مجهدة ... كتبت لي صباح اليوم التالي :

" هذه رحلتي الثانية للقاهرة ..أجمل ما في هذا البلد أنه لا يتغير .. ذكرياتك تبقى كما هي لا يحرك عنها أحد حبة التراب .. إلى أن تنوي أنت ذلك .

في الكويت كل شيء يتغير .. اختفت أول سينما ارتدتها .. اختفى أول شارع عاكسني فيه شاب وسيم .. اختفى بيت جدتي بباحته التي كنا نلعب بها .. اختفى المشفى الذي ولد به أبي ، ما آلمني حقا أنني اتفقت وأبي أن ألتقط له صورة أمام مبنى المشفى ، لكن الفكرة تاهت في زحام تفاصيل حياتية أخرى ... إلى أن اختفى المشفى أثناء رحلة قصيرة قضيناها في ربوع لبنان .. بعد عودتنا ، وأثناء اتجاهنا للمارينا مول ، توقفنا في الإشارة الفاصلة بين المشفى والمول التجاري ، ظل والدي واجماً للحظات ، إلى أن

نبهته السيارة التي خلفنا بتلكئه ..نظرت إلى حيث ينظر ، صدمتني مخلفات البناء التي تكومت مكان المشفى ... واسيته بكلمات حانقة على مسئول لا يعي قيمة أن يكون لك تاريخ .. في بلاد أحوج ما تكون للتاريخ .. رد والدي بهدوء :

إذا كانت الكنيسة التي حملت الكثير من ذكرياتنا قد اختفت ألا تريدين للمشفى أن يتلاشى !

هل تتخيل للحظة أن بلداً تهدم كنيسة ؟!

الدول المتحضرة تفخر بعمر كنائسها ونحن نهدمها ونفنيها عن الوجود ! والدي كان يعشق تلك الكنيسة ، لأن منزلهم كان قريباً منها ، حكى لي الكثير عن مغامراته وأصدقاءه في الكنيسة ، حين كانوا يسترقون السمع للترانيم الغريبة على أسماعهم ، يتلصصون على الشباب المهندم والفتيات الفاتنات ...وفي المساء كان سور الكنيسة ملاذاً لمغامراتهم البريئة بعد أن ينهكهم الجري وراء كرة القدم في (البراحة) الخلفية ... لازال والدي يذكر ما خطته يداه على ذلك السور الذي دمرته جرافات التطوير والعمران الوهمي ! تدفعها سطوة الدشاديش المنكمشة.

"في بلادي ..وحدها المساجد التي تعيش" هكذا يردد والدي.

"لو كنت أعلم ذلك ..للعبت في باحة مسجد ..ورسمت ذكرياتي على سور مسجد .. ودفنت فرحتي تحت تراب ساحته الخارجية ..لكنت اليوم أحتفظ بكل ذكرياتي..... "

أردت أن أجيبها :

" لك قلبي .. باحة .. إلعبي به ما شئت" .

لكني تراجعت .

فكتبت هي :

" أعلم أن لديك الكثير لتقوله .... قلبي يحدثني عن رسائل عديدة مخزنة في الـ (Drafts) .. أتمنى أن تجرؤ وترسلها ".

ببوحها ذاك ، فتحت (سارة) صمام الكلمات .. صرت أمطرها يوميًا بأجمل ما لدي .. وما لدى الشعراء من أبيات أستلذ استعارتها من دواوينهم .

تجيبني هي بعبارات أجمل ، لشاعرات خليجيات ، لم أدرك أنهن أجرأ من الشعراء الرجال في كثير من الأحيان . فبدت (إيميلاتها) أكثر جنونًا .. وألقًا .

Messages

فـي ظـل حيـاة تقتـات علـى (النكـت) ، يهبنـي أصـدقائي المحبين!... رسائل نصية، يومية :

"(خـال) يـذهب للمدرسـة يومّيـاً ، ويسـجل غيـاب ، لـيش؟... لأن دراسته مسائية خخخخخخ"

" (عبد) فصل من المدرسـة ، ليش ؟ لأنـه استنزل على موسيقى تحية العلم"

" أسود تزوج سودة .. جابوا ولد أشقر سموه مستحيييييييل "

" واحد عبد راح سوق الفحم ...ضاع "

ومن الإيميل تطل صورة معنونة بـ :

" إبحث معنـا عـن فـوزي... قـرر فـوزي السـفر إلـى إحـدى الـدول الأوربية للاستجمام ... أين فوزي في الصورة ؟" ...

كانت الصورة لمجموعة من الشقراوات يحطن بشـاب أسـود معالمـه غيـر واضـحة بسـبب سـواده الشـديد ، لـولا الـدائرة الحمـراء التي أحاطت به .

إيميلات أخرى تضم صورا لقبائـل أفريقيـة ، باتـت ملامحهـم ، أزياءهم ، حياتهم ، مصدراً للضحك .

كل ليلة يصر زملائي على احتقار لوني .. عبر مسجات وإيميلات عنصرية ، عن رجل أسود بعيون جاحظة ، امرأة سوداء بمؤخرة كبيرة ، طفل أسود يتسلق الأشجار ...

أتجرع عنصريتهم بريق جاف ، وأتذكر قول حبيبتي :

- لا تصنع من الحثالة همك !

لم يكن بُداً من مهاجمتهم كما نصحني عمي (عنبر) :

- هاجمهم .. دعهم ينشغلون بالدفاع عن أنفسهم دائماً .

وأردف موضحاً :

" كما هو الحال في أميركا ، نكت عن أبناء الشمال ، الجنوب ، البيض ، السود ، المكسيكيين ، الصينيين ، الهنود ، العرب ....

في الكويت أيضا نكت عن كل الانتماءات ، الألوان ، الأعراق....

كلنا في هذه الدنيا مشروع نكتة يا جمال .

إلصق كل نكتة بصاحبها .. دعها تنهش عنجهيته .. تمص دمه الملكي .. ليعرف كل منهم طعم الألم " .

لم تكن لدي تلك النزعة الانتقامية ، أردت فقط .. أن افتح عين الآخر .. ليرى.

جهزت كل النكات :

" عازمي قال لزوجته ... مطيري سأل والده ... عجمي..حضري .. إيراني ....عراقي ... سعودي ....صعيدي "

بعثرت انتماءاتهم أمامي ...ألصقت كل انتماء منهم بنكته الخاصة .. أرسلتها عبر مسجات استنزفت يومي كله ... استنشقت الهواء طويلا ... استلقيت على السرير .. وتمتمت :

ما أقبح أن تملك وجه عدوك .

* * *

كتبت لها :

"هل أفخر بلوني الذي أعشق ؟! أم أقتل عشقي قبل أن يتحول إلى دعابة تتناقلها (المسجات) ! "

كتبت تقول :

" دع عشقك يتمدد .. ولتكن المسجات دليلك للابتسامة لحظات الألم .

الاختلاف ينخر في جسد البشرية ... لست وحدك المختلف ... أنا ذاتي نطفة اختلاف جذري مازلت أتجرع ألمه إلى اليوم ، مذ تزوجت أمي بأبي بعد معاناة .

هي تنتمي لقبيلة ترى في الآخر (لقيطاً) لا أساس له ، طالما أنه لا يحمل وزر الاسم الذي يربطه بفوج ينصر ساعة الحرب ، ويتوعد ساعة الهزيمة ... تلك الأسماء التي لا قبيلة تزينها ، يراها القبلي أسماء عارية ، لا ظهر لها ... تمتهن مهنا ينأى عنها القبلي الذي يجر خلفه أصواتا تكابر وأفواه أطفالها فاغره .

وهو ينتمي لعائلة ترى في القبيلة ثقلاً ظاهرياً أجوف ... يقوده رجل لا يعرف عن القطيع سوى أسماءهم .. يحركهم بكلمة ، وينهرهم بعصا ... علمهم أن سلب القبائل الأخرى .. كفاح من أجل البقاء ، سبي نساء القبائل الأخرى .. استعراض للذكورة التي تعززها بندقية وجواد ، وفراش امرأة .

كان حلمهما مستحيل ، لكن أمي كانت قوية ، أدركت أنها إن لم تتزوج ستظل أسيرة ذكرى رجل لا ينسى.. فقررت أن تجازف وتتزوج ذاكرتها، حتى لا تضطر للادعاء بنسيانه .

كان أبي ملاكاً ... ولا يزال .

اتفقت مع أحد أخوتها على تزويجها دون الرجوع للأخ الأكبر ، الولي ، فتم لها ما كان ... كلاهما ظل ممتناً لخالي إلى أن توفاه الله قبل ثلاث سنوات في حادث سيارة مفزع بطله ابن نائب ، حول حالة الحزن التي عشناها تلك الفترة ، إلى جدال ونقاش حول إمكانية العفو عنه ...وبعد أن تم إقناع زوجة خالي أن هناك حق

للدولة لن يسقط ، وافقت على استلام فدية زوجها بعد أن أغراها الجميع أنه رزق للأولاد لا محالة .

لم تهنأ بالفدية ، بعد مرور أقل من أسبوع ، اكتشفت زوجة خالي أن قاتل زوجها يهنأ بحياته خارج أسوار السجن المفترض... وفي حالة من الجنون أخرجت مبلغ الفدية الذي تسلمته للتو وراحت تنثره فوق نيران أشعلتها في حديقة منزلها . إلى أن سيطر الجميع على الحريق وأنقذوا أكثر من نصف المبلغ .

نحن نعيش تراجيكوميدي الاختلاف يا عزيزي ! "

* * *

بعد أكثر من ثلاث سنوات .. صارت علاقتي بـ (سارة) .. عشقا بلا مواربة .

- ألا يزعجك لون بشرتي ؟!
- لماذا ؟!
- أن تعشقي الأسود وأنت البيضاء ... (صمتُ طويلا ، بانتظار مبادرتها ، فأردفتُ لإنهاء حالة الصمت المعلق) أليست مسألة صعبة ؟

- (ابتسمت ، مدت يدها ووضعتها بجانب يدي) أنظر كيف لسوادك أن يزيدني بياضًا (ضحكتْ بعمق ، فبدت مثيرة حد الجنون)
- وهل ستقولين لوالديك سأتزوج أسود ليزيدني بياضًا ؟
- (ضحكت بصوت أعلى ..ازداد جنوني) سأقول لهما أني سأتزوج من إنسان يعشقني ، يتقن احتوائي ، تأسرني كلماته ، وتتلقفني روحه ... سأتزوج من إنسان تمنحني طلتُهُ حالة من السعادة ، والدفء ..
- (قاطعتها) هنا لن تتركك والدتك تكملي حديثك ، أعتقد أن الحديث عن (الطلة) ليس في صالحي على الإطلاق .
- لكني أعني ما أقول .. أنت وسيم فعلا
- وسيم بالنسبة للسود فقط
- بالنسبة للجميع .. مقياسي لا لون له .. مقياسي يسبر الروح ويقرؤها.
- أرغب أن أتوقف عند مقياس والديك أكثر .
- توقف عند مقياسي أنا فقط .. والدتي تعلم أني أذوب عشقاً بـ (دينزل واشنطن ، تيرينس هوارد، فوكس..) كل هؤلاء سود . هل حين عشقتهم كانوا شقرا مثلاً ؟ جميعهم أعشق روحه .. وهكذا هم البيض أيضا . هل لك أن تقول لي : ما الذي يجعل من (ريتشارد جير) أحد أحبتي

الهوليووديين ؟ هل تظن أن عينيه الضيقتين ، أنفه الكبير ، وشفتيه المشفوطتين ..مصدراً للعشق ؟!
- وشعره الأبيض أيضاً !
- يكاد يكون أجمل ما فيه ... عدا ذلك لن تجد فيه ملمحًا مدهشا .. لكن روحه الجميلة تكاد تتفجر من عينيه الضيقتين ..فتجعلهما أكثر إدهاشا . أخبرتني إحدى صديقاتي أنه عنصري ويكره العرب ... حالما أتأكد من ذلك ، لن تعود روحه جميلة كما أظن ، وسأكتفي بأحب الوجوه إلى قلبي (روبرتو دينيرو) ، من بين مسامات وجه هذا الرجل ، تشع روحه سحرًا ، أدرك أنني لن أعجز عن إيجاد تقاطيعه في وجوه عشرات عمال المخابز في الجمعيات التعاونية .. لكن روحه لا تحملها إلا تقاطيع (دينيرو) فقط .. وأظنني لو لم أتمنى الاقتران بك .. لتمنيت الزواج بـ (دنيرو)!

كانت حقائقها عن الرجال مذهلة ... رغبت أن أحتضنها بشدة حين أكدت لي:

لا (ديكابيريو) ولا (براد بيت) ولا حتى (جوش هارتنت)، جميع نجوم الشاشة وأكثرهم سحرا ، مجرد تلاميذ في

مدرسة الإحساس التي يديرها (دنيرو) .. وأنا حين أعشق ..
أعشق الرئيس .. لا المرؤوس !

- وما عساي أن أكون أنا في تلك المدرسة ؟!
- أنت مختلف عن كل هؤلاء .. هم يسكنون مدرسة تعج بالتقاطيع المنمنمة .. وأنت تملك مدرستك الخاصة التي لا يملكها غيرك ... كما أن مدرستهم لم أرتدها يوما .. أما مدرستك فارتادها كل يوم .... وحدي .

* * *

في كل يوم نتراسل فيه ، أرتفع لأعلى سقف في الغرفة .. أشعر أني أطفو فوق جهاز(اللاب توب) .. أداعب حروف (الكي بورد) بأدق أطراف أصابعي .. وأعود لأطفو من جديد ...

في تلك اللحظة لم أرغب بالعودة إلى سطح الأرض حين كتبت لي تقول :

- عشقت إحساسك .. روحك ، وابتسامتك ... ولسوادك أكبر أثر في تحرشي بك ذلك اليوم .
- في معرض الكتاب ! ألم يكن اللقاء صدفة ؟
- أعتقد أنك لازلت تحمل جزءا من سذاجة الأميركان .. يا حبيبي هل كنت تعتقد أني مددت يدي تجاه رواية (فؤاد التكرلي)بحثا عن (مسرات وأوجاع) قرأتها منذ سنوات؟!.. لفتني مظهرك .. أردت مشاكستك فقط ، وبعد

أن تعرفت على روحك ..أعتقد أني أرغب بمشاكستك للأبد!

أغمضت عيني .. تخيلتها تهمس لي :

أرغب بمشاكستك للأبد ! ..

ورحتُ أحلم .

صبغـــــــة

- جمال .. لن يفيدك تكرار الموضوع . لا أمل على الإطلاق .
- أعرفك صعبة المراس ، جريئة ، لم تخضع لتزويجك من ابن خالتك ، لم تجبر على السفر معهم في الصيف، واستطعت البقاء وحدك ، أعرفك تقررين حياتك..لماذا عجزت عن هذا القرار ؟
- لأنه مسألة حساسة .. إنه زواج .
- زواج بأسود .
- قد أستطيع مجادلتهم في كثير من الأمور ، لكنني عجزت عن مجادلتهم في هذا الأمر تحديداً .
- لأني أسْود .. !؟
- لا يهمني سوادك ، فأنا أحبك أنت .
- خلته سببًا من أسباب الحب .
- أحبك به ومن دونه .
- ولكن !
- لكنهم أهلي
- وأنا؟!
- سأظل أحبك للأبد
- كلام لا صحة له
- أتشك بحبي ؟
- لم تتخذ موقفا واحدًا.
- كيف ؟

- واجهيهم ، قاتلي من أجلي .
- لا أستطيع ، حجتهم أقوى مني .. لو لم تكن أسود اللون لاختلف الأمر .
- عدنا للون .. كما توقعت .
- بالنسبة لهم بالتأكيد
- وأنتِ ؟!
- حاولتُ الدفاع عن وجهة نظري لكن حجتهم أقوى .
- بأي شيء حاجوك عدا لوني الذي تعشقينه حسب علمي ؟
- توقفوا طويلا عند تأثير قناعاتي على مستقبل أطفالي .
- أطفالك ؟!
- أطفالي سيحملون الصبغة ذاتها ، لأن صبغتك أقوى..هذا الأمر يشكل كارثة بالنسبة لأمي ، والأهم بالنسبة للمجتمع الذي مازال يتعامل معك بعنصرية ، كما تؤكد أنت دائما !
- يبدو أن لوني بات يشكل هاجسًا بالنسبة لكِ أيضا !
صمتت إلى الأبد .
حاولت بعدها مراسلتها .. كتبت لها مرتين . ردت علي مرة واحدة .. رقصتْ أوصالي حين لمحتُ بريدي يرفرف حاملا رسالتها .. فتحتُ (الإيميل) وإذ به عن أحد أبناء الأسر الحاكمة الخليجية .. يستعرض فيه هوسه بهوايات خطيرة لا يمارسها إلا رفقة حاشيته .. ألغيتُ الإيميل .. ولم تعد لمراسلتي مذ حينها ...

أدخل صفحتها على الفيس بوك .. أجدُ صورًا حزينة لوجه (روبيرتو دينيرو) .. كُتب تحتها : "حين يحزن الملك" .
أبصق على (دنيرو) .. أقفل الصفحة .. وأموت .
أتذكر حلمها في الكتابة والنشر باسمها الحقيقي ...أتأكد من أنها لم تكافح من أجل ذلك الحلم ... كما لم تكافح من أجلي .
العبد ،طناقر عبيد ، الخال .
كل المصطلحات العنصرية التي واجهتها في حياتي .. لم تشكل مأساة مقابل حقيقة أن حبيبتي الوحيدة ترفض أن ترزق بطفل يحمل صبغتي .

* * *

قررتُ اليوم أن أحقق رغبة والدتي .. قررتُ العودة إلى طفولتي .. مكاني الأول . بعد سنوات طويلة من المتعة قضيتها في بلدي الجميل ، الكويت .
بلدي الذي أبى أن يظل جميلا منذ أن توقفت (الزوارات) الأسبوعية ، وتحولت إلى شهرية مع السنوات .
منذ أن فقدتْ الهدايا والألعاب بريقها ، وتأثيرها في مشاعر رجل يخوض أولى مراحل الشباب .
منذ أن انتقل معظم الأصدقاء ، من ملعب كالح يتوسط حيّنا الهادئ ، إلى جلسات (ديوانية) زائفة معجونة بالفراغ ، يعتمر

روادها قوالب (منشاة) تعوقهم عن التفاعل الحيوي ، وتمنحهم فرصة التفكير الطويل قبل التفوه بأي جملة صادقة قد تضر بالمصالح !

كم كنت أشفق على أولئك الأصدقاء ، وأنا أرصد انفعالاتهم وهم ينتصبون أمام شاشة التلفاز بانتظار مذيعتهم المثيرة في فوازيرها ، متغاضين عن تشدقها بالعادات والتقاليد بـ (كليشيهات) ممجوجة ، وعبارات محفوظة... يحلمون بلحظات ممتعة تحملها ضحكاتها المفبركة ، أزياؤها العارية ، وغمزاتها المتتالية في مشهد مقزز ، جعلني أشفق عليها أحيانا ، وأنا أتأمل صراعها العنيف من أجل البقاء ، بعد أن أدركتُ أن ترويج ضحالتها الفكرية يحتاج إلى أكثر من مجرد عرض تقاطيع جسدٍ مستهلك !

لم يعد لي مكان بينهم ...فلا مذيعتهم الغبية تثيرني ، ولا ديوانيتهم تمتعني .

ولم أعد بالنسبة لهم أكثر من صديقهم (الخال) .

الأسود في الصغر الأمتع حسًا ، والأعذب رفقة ، لكنه في الكبر سليل تاريخ عبودي ، يتحول بمعيته إلى (صبي/خادم) يحتضن دلة القهوة وفناجين لا تُشبع ، تقدم للحضور تبعاً لحركات يومئ بها الضيف ليظل طوال الجلسة ظمآنا طالباً من (أهل الكرم) رشفة أخرى ، ليمارس عليه مضيفه فرحة الواهب .

وإن أبى الأسود حمل فناجين القهوة ، فإنه يتحول إلى راقص في الحفلات ، وفي أحسن الأحوال في المسرحيات...على أمل أن يتطور إلى وظيفة كومبارس .

لم يعد لي مكان في بلد ، يرفض حبي لمجرد أني أسود ، وتظل الحبيبة تتوارى خلف حجج الأهل ..

حبيبتي البيضاء اليافعة تشتهي جسد هذا الأسود الفحل ، لكنها تخشى أن يتلون أطفالها بلونه ، صبغته .

اليوم أحقق رغبة أمي .. اليوم أعود لبلد لا ينعتني بالعبد .. ويحاول خداع الله بالاستغفار مردداً : كلنا عبيد الله .

اليوم أعود لبلد ، لا تخشى نساءه التعبير عما يحببن ، يشتهين .. دون أن ينظرن وراءهن لمجتمع يتوقف عند انتماء أزواجهن .. وصبغة أطفالهن .

اليوم أعود لبلد احتل فيه الأسود ...البيت الأبيض .

جــــــــذور

لـم أقـض فـي شـيكاغو أكثـر مـن يـومين إرضـاء لوالـدتي وعائلتهـا ، بعدها عزمـت الرحيـل إلـى (كاربونـديل) ... مـلاذي الأول .

وبيدي صحيفة تحتضن خبرًا أشعل الهواجس في كياني .

" البحث عن الجذور فكرة مذهلة " ..

هكذا علقت إحدى فنانـات هوليـوود الشـهيرات ، باحثـة عن جذورها عبر حمض (دي إن إيه) الذي تستخدمه شركة كبرى لهذا الغرض .

توقفتُ كثيرًا عند مصطلح (الجذور) ..

تساءلت من أكون ..؟

ما هي جذوري ؟!

هل أنا من (مخلفات الحجاج) ؟ كما ادعى زميلي في المدرسة يوما ما ، متفاخرًا بكلمات والده العنصري .

هل حقا تخلف جدي الأكبر عن العودة لبلاده المسحوقة بعد أن أدى فريضة الحج في السعودية ، ومن ثم نـزح جدي الأصغر إلى الكويت ليصب القهوة في (دواوين) الشيوخ ، أو يضرب الدف في أعراسهم ؟

وهل كان جدي مسلمًا ، أم أنـه ادعى ذلك حين نـزح هاربا من فقره وجوعه ..؟!

عنصرية الآخر تكبلني بالأفكار .. فأمقتني للحظات .. وأعود لأعشقني لساعات .

* * *

ماذا لو كان جد والدتي أحد زعماء (بتسوانا) التي تتوسط جنوب أفريقيا .. يرتدي أزياء مغزولة بالذهب ، يتزوج عشرات النساء ، ولدّي أبناء عمومة بعدد المكسيكيين في (شيكاغو) .

ماذا لو كانت جدتي سيدة (ناميبيا) الأولى .. أو ساحرة (نيروبي) الشهيرة .. أو لعلها إحدى أهم المعالجات بالطب البديل بين قبائل (البوشمن) ، تلك القبائل الأفتح لونا بين جموع سود أفريقيا ؟!

ماذا لو كان جدي سائق حافلة في (أوهايو) ، سليل أحد الإقطاعيين البيض حين انفرد بعابرة سبيل هاربة من مالكها الأبيض الذي يغتصبها كل ليلة كواحدة من ممتلكاته .. فطغت الصبغة السوداء ، ولم تخلف في لوني شيئا من جدي الأميركي؟!

أو لعله كان يعيش في إحدى جنان أفريقيا التي سيطرت عليها القوات البريطانية كما استلذت دوما استعمار الأمكنة والبشر، فهاجر رفقتهم ، ربما لخدمتهم ، وعاش بينهم تعيسًا ، إلى أن وجد فرصة للهجرة إلى أميركا ، بحثا عن معاملة أرقى ، لدى شعب أتقن صنع أفلام صدّرت للعالم كله أنه ألطف البشر!

أتذكر جذور والدي العربية ، تخايلني عدة صور .

ماذا لو كان جدي (عنترة بن شداد) .. وجدتي حبيبته (عبلة) التي لم تستطع توريث صبغتها لأنها خضعت لصبغة أعتى الرجال وأشرسهم ..؟

فأكون بذلك سليل شاعر يضرب بالكلمة أقوى من السيف... وصاحب أشهر قصائد تتغنى باللون الأسود وجمالياته .

ماذا لو كان جدي عبداً من عبيد (هارون الرشيد) .. وجدتي إحدى جواريه... اتفقا على الزواج خلسة .. بعد أن مل جدي نزوات الجاريات المفتونات بعضلاته .. وملت جدتي سلطة (الرشيد) الذي يعتبرها مما ملكت أيمانه .؟!

ماذا لو أنني أنتمي لسلالة (بلال) مؤذن الرسول وأكثر الرجال الذين تحملوا عناء الإيمان بالله في محيط لا يؤمن إلا بالحجر... !؟

وماذا لو كان ذلك القبلي العنصري الذي نعتني بمخلفات الحجاج ، مجرد حفيد لأحد كلاب قريش الذين عذبوا(بلال)وطاردوا الرسول .. فلم يخبرهم القدر حينها أن (بلال) سيعيش للأبد .. وأنهم سيخلفون همجيًا عنصريًا يتبول في العراء حين كان أجداد أمي يكافحون البيض في (إلينوي) ؟

ماذا لو ؟ ..... وماذا لو ؟

أظل أسائل ذاتي .. أبحث عن أصولي التي أدرك أنها جاءت من إحدى غابات أفريقيا السوداء .. حيث رُسمت جذوري .. وخطت في عمق الأرض الخصبة أولى خطواتها .. فتعشقت روحي بالجواهر المشحونة بها أرض أجدادي ، وتشبّع نسبي بالأسرار والغموض كتلك القارة التي لازالت الأكثر غموضًا وسرية .

* * *

ارتاد شوارع (كاربونديل) ... أعرج على أحياء السود .. ألمس ذلك العناء الجميل ... نساء يثرثرن على أبواب البيوت .. أطفال يتسلقون أعمدة الإنارة أمام أعين الأمهات المعجبات بجسارة أطفالهن .. مراهقات يجهزن أنفسهن للذهاب لمركز رعاية الطفولة لإحضار (كوبونات) الأطعمة والحليب .. رفقة حبيب تورط بحبيبة يتشبث في خصرها طفل لا نسب له .

رجل يرتدي نظارات طبية ، ألمحه من خلف الشبابيك يقرأ كتاباً ، وآخر يتصفح جريدةً على كرسي مهترئ أمام عتبة بابه المحمي بشباكٍ مخرومة .. وثالث يتأمل حياته .. وربما يتساءل عن جذوره أيضاً !

أترك ذلك الشارع المحفوف بالسواد .. والألوان الصارخة التي يصر أبناء عرقي على ارتدائها .. أتوقف كثيراً عند المسجد

الذي ارتدته صغيرًا .. ألمح وجوهًا جديدة بعيون ممطوطة تخرج منه ، ونساء ملثمة تكافح من أجل الحفاظ على لثام يرفضه الجميع.

رجال ملتحون .. وآخرون قرروا ألا يحملوا عبء تلك الشعيرات وعواقبها... تخاطفت أمامي العديد من الدشاديش البيضاء التي كنت ألقبها بالبراشوتات حين كنت صغيرًا في هذا المكان .

البعض من أبناء عرقي يخرجون من باب ذلك المسجد الصغير ، يحفهم إحساس بالرضا تبثه وجوههم الهادئة .

أسير في ذات الشارع حيث صَدم فيه والدي ذلك الغزال الصغير .. أسير برفق شديد .. ألتفت يميناً وشمالاً خشية غزال تائه.

أترك المكان ... ألجأ للبحيرة الصغيرة خلف مبنى جامعة جنوب إلينوي (SIU) ، ترمقني فتيات شقراوات ، مراهقات ، قررن العبث بمياه البحيرة ، أبدأ بالاستعداد للاستمتاع بالمياه الفاترة ، تنهض عجوز شقراء من مكانها ، تخفي بيدها اليمنى محفظتها ، ويدها اليسرى تتأهب لتحذير الفتيات ... ترمقني بحذر.. تصنع (سيناريو) يسكن عقلها المريض ، حول شاب أسود يطمع في أجساد بيضاء غضة!

أتظاهر أني لم ألحظ عنصريتها ، ألوذ بجسدي الأسود العاري ، ألمح نظرات الإعجاب في عيون تلك المراهقات ، أغوص في مياه البحيرة ... أتأملني طويلا .. أعشقني لساعات .

أبتسم في وجه تلك العجوز الشاحبة ...

..............................أسبح باتجاه الضفة الأخرى .